An abstract painting featuring several faces in various colors (yellow, green, red, blue) and styles, some appearing to be in profile or looking towards the viewer. The background is a mix of these colors with some darker, more textured areas.

حكايات حارة

نجيب محفوظ

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم « ١ »

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبور والتكية . ومثل جميع الأطفال
أرنبو إلى أشجار التوت بمديقة التكية . أوراقها الخضر هى ينابيع الخضرة
الوحيدة فى حارتنا . وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة . وها
هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدى بها الحديقة ، بوابتها مغلقة عابسة ، دائما
مغلقة ، والنوافذ مغلقة فالمبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة ،
تمتد أيدينا إلى سوره كما تمتد إلى القمر .

وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسله وعباءة فضفاضة وطاقيه
مزر كشة فتهتف كلنا .

— « يا درويش .. إن شا الله تعيش » .

ولكنه يمضى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء ، ثم
لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى .

— من هؤلاء الرجال يا أبى ؟

— إنهم رجال الله ..

ثم بنبرة ذات معنى :

— ملعون من يكدر صفوهم !

ولكن قلبى مولع بالتوت وحده .

وينهكني اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثم أغفو .
أستيقظ فأجدني وحيدا في الساحة ، حتى الشمس توارت وراء السور
العتيق ، ونسائم الريح تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل . على أن أمرق من القبول إلى
الحارة قبل أن يدهم الظلام . وأنهض متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورني
بأنني غير وحيد ، وأنني أهيئ في مجال جاذبية لطيف ، وأن ثمة نظرة رحيمة
تستقر على قلبي ، فأنظر ناحية التكية . هناك تحت شجرة التوت الوسيطة
يقف رجل . درويش ولكنه ليس كالدرأويش الذين رأيت من قبل .
طاعن في الكبر ، مديد في الطول ، وجهه بحيرة من نور مشع . عباءته
خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن
شدة حملتي فيه أتمل بنوره فيملاً منظره الكون . وخاطر طيب يقول لي
إنه صاحب المكان وولي الأمر ، وأنه ودود بخلاف الآخرين . أقترب من
السور ثم أقول بابتهاال :

— إني أحب التوت ..

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعي ، أكرر بصوت أعمق :
— إني أحب التوت ..

يخيل لي أنه يشملني بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

« بليلي خون دلي خورد وكلّي حاصل كرد » .

ويخيل لي أنه رمى إلى شجرة فأنخني نحو الأرض لألتقطها فلا أعر على
شيء ثم أستقيم فأجد مكانه خاليا ، والظلمة تغشى الباب الداخلي .

وأقص القصة على أي فيرمقني بارتياح فأؤكدها له فيقول :

— تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته !

فأحلف له على صدق بكل مقدس فيسألني :

— ترى ما معنى الرطانة التي حفظتها ؟

— سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية ..

فيصمت أي مليا ثم يقول :

— لا تخبر بذلك أحدا .

ويسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتحلف وحدي بعد ذهاب الصبيان . أنتظر ظهور

الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتي الرفيع :

— « بليلي خون دلي خورد وكلّي حاصل كرد » .

فلا يجيب . أعاني بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتي .

وأذكر الحادثة في زمن متأخر ، أتساءل عن حقيقتها ، هل رأيت

الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهابا للأهمية ثم صدقت نفسي ؟ ، هل

توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال في بيتنا عن الشيخ

الكبير ؟ . هكذا أفكر ، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى ؟ . ولماذا

يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته ؟ . هكذا خلقت أسطورة وهكذا

بددتها . غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت في أعماق نفسي

كذكرى مفعمة بالعدوبة . كما أنني ما زلت مولعا بالتوت .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم (٢)

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفى فوق السطح أرى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور السطح مربوط به جبل الغسيل . أرمى السطح الملاصق فيتحلب ريقى . تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشيء من الحلوى . وأعبر السور . أمضى نحو المنور ، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما . تجلس على كنية تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما .. منظر غريب وباهر ، وهى فى ضخامة بقرة . وأهتف :

— يا تيزة !

ترتعب ، تنظر إلى فوق ، لا تلبث أن تضحك ، تصيح لى :

— يا عكروت .. أنزل ..

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

— أدخل ؟

وتسمح فأدخل ، أقرب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسمه وتقول :

— وقعت يا بطل ..

وتستلقى على بطنها وتقول :

— ذلك لى ظهري .

أشمر عن ساعدى ، أدلك ظهرها بحماس ورضا ، أشم رائحة جسد بشرى معبق بالصابون والقرنفل ، وهى تتمتم :

— تسلم يداك !

ثم بمزاح :

— أنت عفريت من الجنة !

ثم وهى تضحك :

— الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسى فى العمل فتقول :

— ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر أمك ؟

— كلا .

فتضحك وتقول :

— وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال ، حقيقة أنك شيطان ، هل

تعلمت التدليك فى الكتاب ؟ ماذا تدرس فى الكتاب ؟

— الفاتحة وألف باء .

— ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم ؟

— بامية .

— عظيم سأغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح ، تنال الملح من فيها بلا حساب ،

وكذلك النكاب المكشوفة ، فتحاول أُمى أن تبعثنى ولكنى أرجع ،

وتشير لها إشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتمادى هى فى الدعابة .

وتسألها أُمى معاتبة :

— متى تصلين وتصومين ؟

فتجيب :

— فى آخر شهر قبل يوم القيامة .

فى الخمسين ، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء . وعمل ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس . وهى تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية ، أرملة ، فى كل بيت لها صديقة حميمة ، لم تشتبك فى مشاجرة واحدة فى حارتنا الحافلة بالمشاحنات .

* * *

وتنهد أُمى ذات يوم وتقول :

— مسكينة يا أم زكى ، ربنا يردك ويشفيك ..

تنوعك صحتها ، وتأخذ فى التدهور ، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة ثقت ، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية ، وتخيب فى شفائها كافة الوصفات . وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال « الأسياد » وألا شفاء لها إلا بالزار . ويحيى اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء ، ويعبق البخور ، وتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن الغموض والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد جديد ، تجلس على عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان ، منقوعة القدمين فى وعاء من ماء الورد تستقر فى قعره حبات من البن الأخضر . وتدفق الدفوف وتهزج الحناجر

النحاسية بالأناشيد المرعشة ، فتفوح فى الجو أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت صاحبتة المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعة بالحرركات ، وتتوهج بالتأوهات ، وتذوب الأجساد فى الأرواح . وها هى أم زكى تتلوى بعنف كأنما ردت إلى جنون الشباب ، وعن فيها المزين بالأسنان المذهبة يصدر صغير حاد ، ثم تركض دائرة حول العرش ، ويتحول ركضها إلى إندفاع رهيب ، وتدور حتى تترنخ من الإعياء وتهاوى مغشيا عليها ..

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتلا :

— ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .

* * *

وها هى الأيام تمر .

وصحة صديقتى لا تتحسن .

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل فى جزع :

— ماذا جرى لى ؟.. ماذا جرى لى يارب ؟! أين أنت يا أم زكى ؟!

ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العيني . وتودع عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها . وتلمحنى واقفا قتلوح لى بيدها وتقول :

— ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار .

فأرفع عيني إلى السماء وأتمم : « يارب .. رجع لنا تيزة أم زكى » .

ولكن كأن الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق .

الحكاية رقم « ٣ »

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .
أنى ينظر إلى باهتمام . يتسم إلى برقة وهو يحتسى قهوته . وهو بهم
بالذهاب يداعب شعري ويربت على منكبي بخنان ثم يمضى .
وأنى تقوم بعملها اليومى بعصبية ، تغضى عن عبثى وتقول لى
مشجعة :

— اللعب يا حبيبى ..

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .
وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمانى جارتنا الشامية
أم برهوم . أعدو إلى المطبخ لأخبر أمانى ولكنى لم أجدها . وأناذى عليها بلا
جدوى فتقول لى أم برهوم :

— نينتك ذهبت فى مشوار ، وأنا معك حتى ترجع ..

فأقول محتجا :

— ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة .

— وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك ؟

وأصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومئ لى بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة وإذا بعم
حسن الحلاق ومساعدته يدخلان باسمين فقلت لهما من فورى :

— أنى خرج .

فقال العجوز :

— نحن ضيوف !، سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبه وهو ييسمل ثم قال وهو يخرج من حقيبتة أدوات
بيضاء لامعة :

— يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى !

ويجىء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا :

— هكذا أفضل .

وإذا بيديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنها
ألصقت بالغراء والمسامير ، فصرخت غاضبا :

— ابعد عنى .

واستغثت بأمر برهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب ..

ولم أفهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها أنا أعانى هجمة
وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الألم الحاد القاسى
ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى إلى أطراف
جسمى وصميم قلبى . وها هو صراخى يدك الجدران ويحتاج أرجاء حارتنى .

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص فى الماء بين اليقظة والنوم .
تمر بى أجيال من الألوان والخواف والأحزان .

وعند نقطة من الزمن تلوح لى أمانى بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

وقبل أن أفتح فمى محتجا أو متهما تضع بين يدي هدايا الشيكولاته والملبس .
وأعيش أياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة ..
ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات .
وأنتقل من مكان إلى مكان مفرجا بين فخذى مبعدا بيدي الجلباب عن جسدى .

الحكاية رقم « ٤ »

وأنا ماض نحو القبو يفتح باب بيت القيروانى تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . ييضאות ملونات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحه نقيه . الدوكار ينتظرهن فأتسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولى فتضحك وسطاهن وهى أشدهن امتلاء وأغلظهن شفة وتقول :

— ما له يسد الطريق !

لا أتحرك فتخاطبنى مداعبة :

— أفق يا أنت !

وأقول متأثرا بدفقة حياة مبهمه :

— بلبلى خون دلى خوررد وكلى حاصل كرد .

فيفرقن فى الضحك وتقول الكبرى :

— إنه درويش .

فتقول الوسطى :

— إنه مجنون !

وألقى بنفسى فى ظلمة القبو فأمضى مهرولا حتى أخرج إلى نور الساحة أمام التكية . فى رأسى حماس وفى قلبى نذير نشوة البراعم قبل أن تفتتح .

صورهن الباهرة مستكنة فى متحف الأعماق .

بذور حب لم يتح لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها .

الحكاية رقم « ٥ »

اليوم سعيد .

سأذهب فى صحبة أمى إلى زيارة حرم المأمور .

هطلت الأمطار فى الصباح الباكر ولكن الجورق وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتحدد جوانبه ولكننى سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكناء ، فى نقرة ذقنها وشم ، ونبرتها ريفية غريبة ، وضحكتها عالية ، وقطنها غزيرة الشعر نقيه البياض ودائما تسبح بذكر الله .

وتعانق أمى مرجبة وأنا أنتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبت

بشعر رأسي ، ترفعني بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليا ، تضمني إلى صدرها فأغوص في أعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها إلى جوارحي دفء مؤثر .
أسير وراهما وأنا أسوى ما تشعث من شعري وملابسي ولما أفق من نفحة الدفء .

وتقول لأمي :

— بت أو من بأن القيو مسكون بالعفاريت ..

فتبسمل أُمي فتقول الأخرى :

— إنهم يخرجون عقب منتصف الليل .

فتقول لها أُمي محذرة :

— إياك وأن تنظري من النافذة .

والأعب أنا القطة حتى تتواري تحت الكنبه . أنظر إلى رأس ثور مثبت في الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول إليه . المضيقة تقدم لي قطعة هريسة فأتناولها . أمني النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة .

ويطول الحديث ويتشعب .

وتشعل المرأة المصباح الغازي المدلى من السقف .

تدور حول المصباح فراشة .

أتساءل متى تحيء لحظة الوداع الواعدة بالدفء ؟



الحكاية رقم « ٦ »

على حصيرة واحدة نقعد صبيانا وبنات في الكتاب . نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبي وقدم بنت . وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه ، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية . تسترق عيناي النظر إلى درويشة وهي تقرأ أو تأكل . في الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثم أسير إلى بيتي حاملا لوحى وصورتها .

وفي موسم القرافة أضيق بالمكوث في الحوش فأمرق إلى الخارج فنتلاقى — أنا ودرويشة — بين القبور المكشوفة بلا تدبير . وأشطر فطيرتي فأعطيها النصف ، نأكل ونتبادل النظر .

— أين تلعبين ؟

— في الزقاق .

هي تلعب في الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجروء على التسلل إليه في النهار . يمنعني إحساس خفي ولكنه غير برىء . ونتواعد بالنظر وبلا كلام . ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب .

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام .

— نجلس ؟

ولكنها لا تجيب .

أجلس على العتبة وأشدّها من يدها فتجلس . أترزح حتى تتلاصق . يغمرني شعور بسرور غريب ذي أسرار . أمد يدي إلى ذقنها فأدير وجهها إلى . أميل نحوها فأقبلها . أحيط خاصرتها بذراعى . أصمت وأهيم وأذوب في دفقة إحساس مبهم فأعرف السكر قبل الخمر .

وننسى الوقت والخوف .

وننسى الأهل والحارة .

حتى الأشباح لا تفرقنا .

الحكاية رقم « ٧ »

في ليالى الصيف نسهر فوق السطح ، نفرش الحصيرة والشلت ، نستضيء بأنوار النجوم أو القمر ، تلعب من حولنا القطط ، يؤنسنا نقيق الدجاج . وتنضم إلينا في بعض الأحيان أسرة جارنا الحجاج بشير . وهي أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبيراهن في العاشرة . يحلو لهن في أوقات السرور أن يغنين معا أغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفى بالبشرة البيضاء والأعين الملونة . أهيم بالأم وبناتها وألح في طلب السماع ، ويستخفني الطرب فأشارك في الغناء وأحرز في ذلك نجاحا وإعجابا حتى تقول جارتنا :

(حكايات حارتنا)

— ما أحلى صوتك يا ولد !

وأجد في مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتي الصوتية كما يجد فيه قلبي الصغير نشوته في حضرة البهاء الأثوى . ويصبح الغناء هوايتي ، وسماع أسطوانات المهدية قرّة عيني ، أما أغنيات الجبل فينشدها قلبي وحنجرتي معا .

وتقول جارتنا لأمي ذات يوم :

— الولد له صوت جميل .

فتقول أمي بسرور :

— حقا ؟

— لا يجوز إهماله !

— فليغن كيف شاء فهو أفضل من العفرتة .

— ألا تودين أن يكون ابنك مطربا ؟

فتؤخذ أمي ولا تجيب فتواصل الجارة :

— ما له سى أنور وسى عبد اللطيف ؟

— إني أحلم أن أراه يوما موظفا مثل أبيه وإخوته ..

— المغنى يربح أكثر من مصلحة حكومية .

وأصغى باهتمام وأنا جالس على حجر الجارة مزهوا بالدفء والمجد .

ولا تدوم أيام السعادة والفن طويلا فذات يوم أرى أمي تهز رأسها

بأسف وتتمتم :

— يا للخسارة !

فأسأها عما يؤسفها فتقول :

— جيراننا الطيبون راحلون إلى بر الشام .

ينقبض قلبي بالرغم من أنني لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل :

— أهو بعيد ؟

فتجيب بحزن :

— أبعد مما نستطيع أن نبلغه .

أود من صميم قلبي أن أغير الواقع ، أن أرجع الزمن إلى أمس ، ولكن

كيف ؟

وأودعهم للمرة الأخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبل يد الحاج

بشير . وأتبع الحانطور نظري حتى يخفيه منعطف النحاسين . وأبكي

طويلا وأعاني مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية ..

الحكاية رقم « ٨ »

مواسم القرافة تعد من أسعد أيامي البهيجة .

نشرع في الاستعداد لها مع العشى بإعداد الفطير والتمر . وفي الصباح

الباكر أمضى بين أوى وأمى حامللا الخوص والريحان ، تتقدمنا الخادمة بسلة

الرحمة .

يسرني تدفق تيارات الخلق ، وطواير الكارو ، وأعرف باب الحوش

كصديق قديم . ويجذبني القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشاخصين ،

وسره المنطوى ، وبإجلال والدى له ، كما تجذبني شجيرة الصبار . وتحت قبة السماء تنطلق منى وثبات فرح . ودفقات استطلاع لا يكدرها شيء ، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة .

وتتغير الصورة بدخول همام في إطارها .

نجىء أختى وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن . همام في الرابعة أو يزيد عنها قليلا ، أجد فيه رفيقا ذا حيوية وجاذبية ، يخرجني بمؤانسته من وحدتي . جميل خفيف الروح ، يلاعبنى بلا ملل ويصدق أكاذيبى وأوهامى .

وأجده ذات يوم راقدا وصامتا ، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا يستجيب ، وأخبر بأنه مريض ..

ويطبق على الجواهاتام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى أحاسيس مبهمة وغير سارة ، ويزيد من تعاستى قلق أمى وجزع أختى ثم حضور زوجها ..

وأسأل عما يحدث فأبعد عن المكان ويقال لى :

— لا شأن لك بهذا .. العب بعيدا ..

ولكنى أشعر بأن حدثا غير عادى يحدث ..

إنه خطير حتى إن أمى تبكى . وأختى تصرخ . وألح من بعيد صديقى مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يترك له متنفس . وأخيرا يتردد اسم الموت من قريب . وأفهم أنه فراق يطول فأبكى مع الباكين ، ويتألم قلبى أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من أيامى البهيجة ، ويتغير وقع منظره . أود أن أطلع على خفاياه ، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كثر الأيام . إنه الحزن والحب الضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب .

الحكاية رقم « ٩ »

خبر يتردد فى البيت والحارة .

تقول إحدى الجارات لأمى :

— أما سمعت بالخبر العجيب ؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول :

— توحيدة بنت أم على بنت عم رجب !

— ما لها كفى الله الشر ؟

— توظفت فى الحكومة !

— توظفت فى الحكومة ؟

— إى والله .. موظفة .. تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال !

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنها من أسرة طيبة .. وأمها طيبة ..

وأبوها رجل صحيح !

— كلام .. أى رجل يرضى عن ذلك ؟

— اللهم استرنا يارب فى الدنيا والآخرة ..

— يمكن لأن البنت غير جميلة ؟

— كانت ستجد ابن الحلال على أى حال ..

وأسمع الألسن تلوك سيرتها في الحارة ، تعلق وتسخر وتنتقد ، وكلما

لاح أبوها عم رجب أسمع من يقول :

— اللهم احفظنا ..

— يا خسارة الرجال !

توحيد أول موظفة من حارتنا . ويقال إنها زاملت أختي الكبرى في

الكتاب . ويحفظني ما سمعته عنها إلى التفرج عليها حين عودتها من العمل .

أقف عند مدخل الحارة حتى أراها وهي تغادر سوارس ، أرنو إليها وهي

تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات في

حارتنا . وتلقى على نظرة خاطفة أو لا ترائي على الإطلاق ثم تمضي داخل

الحارة . وأتمم مرددا كالبيغاء :

— يا خسارة الرجال !

الحكاية رقم « ١٠ »

أم عبده أشهر امرأة في حارتنا .

في قوة بغل وجرأة فتوة ، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع أمام
عنفها .

ولها بنتان جميلتان ، دولت وإحسان .

في أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، من التاجر والعامل والبائع

والصعلوك ، كل أسرة لها عمل وأجر ، هي الوسيطة والشفيع والخاطبة

والدلالة والمأشطة ، وعند الخصومة فهي القوة التي تبطش بالخصم .

وتزور أُمى أحيانا فتحكي لها عن أحوالها . وقد يقتضى الأمر تمثيل ما

وقع في آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب

والسب والقذف حتى يتوهم السامع أن التمثيل مشاجرة حقيقة ..

وهي تجاملنا في المواسم فتجئنا بالكارو لتمضى بنا إلى زيارة المغاوري

وأنى السعود طبيب الجراح .

وأنا الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة . أذهب إليه بقلب طروب

يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد في الفناء ، ويتوق للقرب من دولت

وإحسان .

دولت فتاة طيبة ، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . يحبها شاب

متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا بمصاهرة أم عبده .

إحسان صورة مصغرة من أمها في أخلاقها ولكنها باهرة الجمال .
مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة، تتحدى أمها نفسها فتتشب بينهما
المعارك المثيرة. ويطلب يدها فتیان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة
فريدة كما حدث لأختها دولت. وإني صديقها رغم فارق السن. غرائزى
الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج في عيني بأشواق مبهمة. يبهزنى
حجمها المترامى وأعضاؤها الثرية المتراقصة. وتدعونى أحيانا لأساعدها
وهى تغسل في الفناء. أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وأمضى
كالترنخ من ثقلها. أجلس قبالتها لأتسلم منها الملابس بعد عصرها لأكومها
في الطشت. فى أثناء ذلك تتلصص عيناى وهى ترامق تطلعا فى باسمه.

وتقول لى ذات مرة :

— خذ منديل واذهب به إلى الشيخ ليب .

وأذهب إلى الشيخ ليب فى مجلسه قبيل القبو . يتربع على فروة بجلبابه
المزركش وطاقيته البيضاء ، مكحول العينين مزجج الحاجبين . أعطيه
المنديل وملهما وقطعة سكر ، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول :

— عما قريب يمتلى الكرار ويغنى العصفور ..

وأرجع إليها وأنا أردد ما سمعته لأحفظه ، ويسعدنى دائما أن أؤدى لها
خدمة من الخدمات .

ويطلب يدها صاحب محل فراشة ، غنى فى الخمسين ذو زوجة
وأولاد ، فتزوج منه . تعاشره عامين ثم تختفى من بيته ومن الحارة جميعا
مخلفة وراءها ضجة وعارا وإصابة فى كبرياء أم عبده .

وفى ذات ليلة من ليالى الزمن الجارى الذى لا يتوقف أجدنى وجها
لوجه مع إحسان . ترقص وتغنى :

عومى على الميه يا بت يا شاميه

وترانى فيشع من عينيها نور العرفان . أقف ذاهلا ولكنها تتلقانى ببساطة
وبابتسامة مشجعة . تقبل نحوى فتأخذنى من يدى إلى حجرتها ثم تغلق
الباب وتفرق فى الضحك . وتقول لى بعد أن جلسنا :

— الدنيا واسعة ولكنها فى النهاية كالحق .

وأفارس فى وجهها فتسألنى عن أمها قائلة :

— كيف حال أم عبده ؟

— عال .

— ودولت أختى ؟

— بكريها فى المدرسة .

— ووالدتك وأخواتك ؟

— بخير .

فتقول بمودة :

— زرنى كثيرا .

وأسألها بعد تردد :

— كيف جئت إلى هنا ؟

فتضحك وتقول ساخرة :

— من نفس الطريق التى جئت منها أنت !

الحكاية رقم « ١١ »

نقف في فناء المدرسة الابتدائية جماعات ننتظر نتيجة القبول . أنهينا مرحلة الكتاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن ننتظر إعلان النتيجة . ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضى في تلاوة الأسماء من كشف بيده ثم يقول :

— لبيب منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم .
لم أسمع اسمي . تشيع في نفسي فرحة شاملة . أعتقد أن سقوطي هو نهاية علاقتي بالتعليم وعصى المدرسين ، وأنتى سأستقبل من الآن فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألنى ألى عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

— سقطت ورجعت إلى البيت .

— اخص .. تصورتك أفضل مما أنت ..

فأقول بسرور :

— لا يهم !

— لا يهم ؟

— إنى أكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ وأكره الدروس .. فالحمد لله

على أننى تخلصت من ذلك كله ..

فيقطب أبى متسائلا :

— أنظن أنك ستمكث في البيت ؟

— نعم ، هذا أفضل .

— لتلعب مع الأوباش في الحارة ، أليس كذلك ؟

فنظرت إليه بقلق فقال بحزم :

— سترجع إلى الكتاب عاما آخر ، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك ..

وأهم بالاحتجاج فيقول :

— استعد لعمر طويل من التعلم ، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى

تصير رجلا محترما ..

ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات !

الحكاية رقم « ١٢ »

ماذا يحدث للدينا ؟

يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تتفجر

بمخارجها المتفافات ..

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدران

حارتنا ويصم الآذان ، إنهم يصرخون ، ويقبضات أيديهم يهددون ،

وحتى النساء يركبن طواير الكارو ويشاركن في الجنون ..

وأحملك فيما يجرى من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدينا ..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من

الألفاظ الجديدة السحرية ، سعد زغلول ، الماطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام ..

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صور سعد زغلول تلصق بالجدران ، إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .

وأقول لنفسى إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسل شديد البهجة . غير أننى أشهد مطاردة .

يندفع أناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، يتحصنون بالأركان . يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة . تنطلق

أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات ، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول :

— إنه الموت .

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شئ إلا أصوات متضاربة ، وقع أقدام ، صهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب .

يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت .

ويتردد الهدير ولكن — هذه المرة — من بعيد .. ثم يسود صمت مطلق .

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف .

وأعرف بعض الشئ معانى الألفاظ الجديدة ، سعد زغلول ، الماطة ، السلطان ، الوطن ، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين

والرصاص والموت .

تزورنا أم عبده فى غاية من الانفعال ، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال ، وتنعى إلينا علوة صبى الفران ، وتؤكد أن جياذ الفرسان حرنت أمام سور التكية وألقت الفرسان عن متنها .. وأقول لنفسى إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق .

الحكاية رقم « ١٣ »

مهذب ذكى العينين قصير القامة فى مطلع الشباب ، قيل لى : — ابن عمك صبرى .

أعرف أباه — عمى — معرفة سطحية فهو لا يرح الريف إلا نادرا ، أما صبرى فإنه يرى القاهرة لأول مرة . وأعرف أيضا من أحاديث الليل أن عمى أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدارسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثورى فى موطنه إلى مراكز الأمن .

أسأله وأنا أرمقه بشغف :

— أنت من شبان المظاهرات ويحيا سعد ؟

فبيتسم ولا يجيب .. إنه يبدو أعمق من سنه .

ويقول له أبى :

— هذا بيتك ، وأنت الآن آمن ، ولكن كن على حذر .

وأقول لأبى :

— ولكنك يا بابا أضربت مع الموظفين ؟

— فينهرنى :

— لا تتدخل فيما لا يعنك .

ويعارس صبرى حياة تلميذ مجتهد ذى طاقة كبيرة فى العمل .

غير أن القلق يلوح فى عينيه الذكيتين ذات مساء فأسأله عما يقلقه

فيسأل بحذر :

— ماذا دعاك إلى السؤال ؟

— لست كعادتك .

فيدعونى إلى المشى فى الحارة . نتسكع فى الحارة وفى ميدان بيت

القاضى حتى يهبط الليل . ويهمس فى أذنى :

— تستطيع ولا شك أن تحمل ورقة إلى هذا أو ذاك من الناس ؟

— ولكن لماذا أفعل ذلك ؟

— لا تفعله إذا كان يضايقك .

وأوافق ليعهد إلى بمهمة أيا تكن .

وأمضى لأوزع أوراقا على أصحاب الحوانيت والمارة . يتناولونها

بدهشة ، يلقون عليها نظرة سريعة ، يتسمون ثم يواصلون العمل أو المشى .

وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألنى :

— مبسوط ؟

أعرب له عن سرورى الذى لا حد له فيقول محذرا :

— إياك أن تخبر عمى أو امرأة عمى .

ولا أعلم أننى كنت أوزع منشورات سياسية إلا بعد مرور فترة غير

قصيرة .

الحكاية رقم « ١٤ »

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزلية . من عجب أنهم يهزلون فى الفترات

القصيرة التى تفصل بين المصادمات الدامية . ها هى مظاهرة ضخمة

تسوق فى مقدمتها حمارا مدثرا بقماش أبيض نقش عليه بالأحمر :

« السلطان فؤاد »

ابن بلد يمتطى الحمار واضعا على رأسه قبعة بريطانية ، والهدير

يصنطخب :

يا فؤاد يا وش القملة من قالك تعمل دى العملة

وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد .

وأحمل لأبى خيرا من الحارة أثار خيالى فأقول له :

— يقولون إن اسم سعد يرى منقوشا على البيض بعد خروجه من

الدجاج .

فيضحك أبى ، ويضحك ضيف يجالسه . ويقول الضيف عن سعد :

— كان أعداؤه يتجنبون النظر فى عينيه وهم يجادلونه تفاديا للشعاع

الحاد الذى ينطلق منهما .

ويطرب أبى للكلام ويتمتم :

— إنه هدية السماء إلينا .

فيقول الضيف متحمسا :

— انتهت سنون النحس وبدأت أيام السعد .

ويتنهد أبى قائلا :

— يا أسفى على الرجل الشيخ المريض فى منفاه .

فأذهل وأسأل :

— سعد مريض ، كيف هذا يا بابا ؟

ولا يعيرنى التفاتا فأصر قائلا :

— سعد لا يمكن أن يمرض .

ثم ييقن أشد :

— لم يبق إلا أن تقول إنه سيموت مثل همام ابن أختى .

الحكاية رقم « ١٥ »

ويزور أبى جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة . لا حديث هذه الأيام إلا عن الثورة . حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة ، ولعبنا فى الحارة مظاهرات وهتافات . وتصبح دوريات الإنجليز منظرا مألوفاً لدينا ، نتمتع فى الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجب .

يدور الحديث بين الزوار عن الثورة .

— من يصدق هذا كله أو بعضه ؟

— إنه الله الرحمن الرحيم .



سعد مريض ! كيف هذا يا بابا ؟

- يخلق الحى من الميت .
- الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يقتلون ويقتلون .
- الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الإمبراطورية .
- انقطعت المواصلات تماما ، أصبحت مصر دويلات مستقلة !
- والمذابح ؟
- مذبح الأزهر .
- مذبح أسيوط .
- العزيزية والبدرشين .
- الحسينية .
- لا أنا ولا أنت ، ليحى سعد !
- إى والله ليحى الساحر العظيم .
- ولكن الأموات يفوقون الحصر .
- أحياء عند ربهم .
- وينبرى رجل ليقص سيرة سعد كما يعرفها ، ومواقفه مع الإنجليز
- والخديو قبل الثورة .
- والمح أى تغرورق عيناه بالدموع .
- أراقبه بذهول محتقنا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على
- خدى .

الحكاية رقم (١٦)

سلومة أول شهيد من أبناء حارتنا . حقيقة أن علوة صبي الفران أول من قتل فى حارتنا ولكنه فى الأصل من أبناء كفر الزغارى . وعم طلبة — أبو سلومة — يباع يسرح بعربة غزل البنات ، وكان سلومة يعاونه ، وينام على مقدم العربة إذا أنهكه التعب .

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضى فينضم إليها سلومة بتلقائية دون أن يتبته إليه أبوه . وتنقض على المظاهرة قوة إنجليزية فى خان جعفر وتطلق عليها النار . يصاب سلومة برصاصة فى رأسه ويسقط قتيلا .

وينتشر الخبر فى الحارة فيجتاحها حزن ، ويهزها الفخر والإكبار . ويقبل الناس على طلبة يعزونه وينثرون بين يديه لآلى الكلمات . ورغم حزن الرجل وتهالكه فإنه يمارس إحساسا جديدا لم يعرفه من قبل ، يرى نفسه لأول مرة محوطة بأهل الحارة من كافة الطبقات ، يفوز بإكبار من لم يبالوا من قبل برد تحياته ، وتنال عليه نفحات الموسرين من التجار والمعلمين .

وتكون جنازة سلومة أعظم جنازة تشهدها حارتنا ، تصغر إلى جانبها أى جنازة سابقة من جنازات الفتوات والأعيان ورجال الدين . سعى وراء النعش المكمل بالعلم جميع الذكور ، وحياء النساء من النوافذ والأسطح ، وانضم إلى المشيعين مئات من الحوارى المجاورة ، فبلغت

الحسين في ضخامة مظاهرة وجلالها .
وتصير الجنازة حديث الناس ، ويمسى سلومة اسما ورمزا ، ويحظى
الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة ، وينوه المعلقون بعجائب الحياة
المغيرة للقيم في لحظة من اللحظات الساحرة .

الحكاية رقم « ١٧ »

استيقظت ذات صباح فأجد في بيتنا امرأة وفتاة .
وتقول أُمى :
— تعال سلم على عمتك و بنت عمك سعاد .
أسلم بحياء من يراها لأول مرة . المرأة تشبه أبى حقا ، الفتاة غاية في
الجمال .
وتسألنى عمتى :
— فى أى سنة دراسية يا حبيبى ؟
— الثانية الابتدائية .
وأفتن بالفتاة فتملؤنى بسحر لطيف وأحلام عذبة .
وأعرف أن عمتى جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهزها وأن زفافها
وشيك . وتشغل أيامهما المكدودة بالقاهرة بالتردد مع أبى على محال الأثاث
والنجارين والمنجدين .
وفى أوقات الراحة تتبدى سعاد فى ثوب أنيق وزينة جذابة ، تتألق

بالوان العرائس وتعبق بشذاهن .
وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض .
وتقول لى وهى تنظر إلى الحارة من خصائص النافذة :
— حارتكم مسلية جدا .
— تعال أفرجك على أزقتها والقبو والتكية .
تتجاهل دعوتى . تتسلل نظراتى إلى عنقها وأسفل ساقها ، أتوق إلى
تلاق غامض وإشباع مبهم ومغامرة مجهولة ، أريد أن ألمس خدها المتورد ،
لا أريد أن أصدق أنها سترحل بعد أيام ، وأن قلبى لن يجد من يؤنس .
وأستجمع شجاعتى وأقول :
— أتعرفين .
وينقطع الصوت والتفكير فتساءل هى بنبرة محرصة على مواصلة
الحديث :
— أتعرفين ؟
ألوذ بالصمت فتسألنى :
— لماذا تنظرون إلى هكده ؟
— أنا ؟!
— نعم ، رأيته ، لا تنكر .
وتضحك ضحكة قصيرة ثم تقول :
— أنت ولد شقى .
وينقبض قلبى من الشعور بالذنب .
* * *

وأرى أُمى وعمتى ذات يوم وهما يتناوبان النظر فى صورة فوتوغرافية
لسعاد . وتقول عمتى :

— أصر العريس على رؤية الصورة .

— وأبوها وافق ؟

— يعنى .

ويترامى إلينا صوت أُمى من حجرتها :

— تصرف غير لائق !

فتقول أُمى :

— الزمان غير الزمان !

وتقول عمتى :

— ما هى إلا صورة ، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أُمى بنبرة لا تخطو من احتجاج :

— على خيرة الله .

أتابع الحديث بحزن خفى . تطالعنى من ثناياه نذر الفراق الأبدى
ووجه الكتابة فى الأنف .

وتمر أيام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن إيقافها .

وتجىء لحظة الوداع .

وأرنبو إلى خد سعاد المورء كرجيف خلرج لئوء من الفرن .

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل :

وتضحك أُمى من لوعتى دون أن تفتن إلى عمق أشجانى .

الحكاية رقم « ١٨ »

الفرحة ترقص فى القلوب ، والنشوة تشتعل فى النفوس ، يوم عودة
سعد .

أُمى يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقة ، زر طربوشه مفقود ،
عقدة رباط عنقه غائصة فى ثنية الياقة . جاكته تنضح بالعرق والتراب ،
صوته مبجوح كأنه سعل دهرًا ، ولكن عينيه تتألقان بنور ظافر . يستلقى
على الكنبه ويقول :

— هتفت حتى ضاع صوتى ، نسيت نفسى تماما .

ثم بارتياح عميق :

— تجمعت الدنيا كلها فى ميدان السيدة ، سبحانك يا ربى ما أكثر

عبادك !

ويحتاج الحارة إحساس غامر بالنصر ، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق
الأبواب . وتطبق المظاهرات على حين لا تريد أن تنتهى . سعد .. سعد ..
يحيا سعد . وتلهب حرارة الهتافات خيالى ، وآسف على أن المظاهرات لا
تدخل حارتنا شبه المسدودة التى لا مخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر
الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة .

وأسأل أُمى :

— سيرحل الإنجليز ؟

فتجيبني بيقين :

— إلى غير رجعة .

وفي الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالا خاصا . تضاء الكلوبات في هامات الدكاكين ، ترتفع الأعلام ، تدوى الزغاريد وتتطوع العالمة المأظية بإحياء الليلة . تقيم سدتها في الوسط أمام الوكالة يحف بها تحتها ، ترص الكراسي أمامها ، وعلى أنغام العود والقانون والنأى والرق يرقص الرجال ، وتغنى هي :

ليالى الأنس عادت بالليالى

وتغنى أيضا :

يا بلح « زغلول » يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها :

ياواد يا أللبنى كان جرى لك إيه يابن المره

جه الاستقلال غصبا عنك وعن انجلترا

وتكتظ البوطة بالسكاري وتشتعل الغرز بنيران الجامر ، وحتى

المجاذيب والمتشردون واللصوص يسهرون ويفرحون . ويشارك عم طلبة

أبو الشهيد في الحفل ، والشيخ ليبب يحضره .

وأسهر أنا في النافذة ، وقوى مجهولة تشحن قلبي الصغير بجوية

سحرية .

الحكاية رقم (١٩)

أبى ينظر إلى نظرة غامضة ويسألنى :

— ماذا فعلت ؟

فأجيبه بسرور وزهو :

— اشتركت في المظاهرة الكبرى .

— كان يمكن أن تدوسك الأقدام .

— كان الصغار كثيرين .

ويدارى أبى ابتسامة ويسألنى بنبرة ممتحن :

— الآن سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلم تضربون ؟

— أضربنا لتأييده في موقفه ضد الملك .

— من قال لك ذلك ؟

— رئيس الطلبة ، قال إن سعد زغلول قدم استقالته احتجاجا على

موقف الملك من الدستور ، وأنا ذاهبون لتأييد الزعيم .

— هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك ؟

— وأتوقف عن الاسترسال مرتبكا فيضحك أبى ولكنى أبادره :

— نحن مع سعد وضد الملك !

— عظيم ، وماذا كان هتافكم في عابدين ؟

— سعد أو الثورة .

— ما معنى ذلك ؟

وأفكر قليلا ثم أقول :

— معناه واضح ، سعد أو الثورة ..

وهو يتسم :

— عظيم ، ومن الذى انتصر ؟

— سعد ، وهتفنا : عاش الملك ويحيا سعد .

ثم أقول بحماس :

— الاشتراك فى المظاهرة أمتع من أى شىء فى الدنيا .

فيتسم أى ويقول :

— بشرط ألا يشترك فيها الإنجليز !

الحكاية رقم « ٢٠ »

يحكى مذكور أمهر لاعب كرة فى مدرستنا ، وصديقى المفضل فى

المدرسة الابتدائية .

أجده يوما يقرأ كتابا فى الفسحة فأسأله :

— ما هذا ؟

— ابن جونسون .. الحلقة الأولى من سلسلة بوليسية جديدة ..

ويعيرنى الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل .

وأواظب على قراءة السلسلة ، ثم أنتقل من سلسلة إلى أخرى ، ومن كتاب

إلى آخر ، ثم أدمن القراءة .

وأصير مع الزمن بطلا من أبطال القراءة ، أما صديقى فبهجرها سريعا

ثم يتربع على عرش الكرة .

الحكاية رقم « ٢١ »

إبراهيم توفيق مقترن فى ذاكرتى بالتهريج والتحدى ، خفيف الروح

نصف مجنون . بطل هواة لعب الكرة « الزلط » فى فناء المدرسة . نتقى

عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة فى حجم الجوزة لتقوم مقام

الكرة ، نخوض بها مباراة يومية فى فسحة بعد الغداء . والمباراة « الزلطية »

ممنوعة رسميا ولكن يغضى عنها عادة ، وتمارس بعنف فى أثناء تناول

الضباط طعامهم ، ويكف عنها فورا عند مرور الناظر ، أما عواقبها

الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء .

وفى الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشه حتى يصير مثل

طاقة ، ويرتدى جاكته بالمقلوب ، ويحاكى مشية شارلى شابلن ذهابا

وإيابا على إيقاع تصفيقنا ، ثم يختم لعبه بإنشاد مونولوج :

يا عديم الخال يا قليل المال

رفعتك محال فى زمن الأنـدال

ويوما يتباهى بالمقالب التى يدبرها لزوج أمه فيقول له احذنا :

— أتخداك أن تأكل قرن فلفل حامى !

والتحدى يستفزه لمصارعة المحال فيهتف :

— آكل عشرة !

ويتراهن فريقان . نبتاع من بيع الفول عشرة قرون فلفل حامية ،
وتحلقناه في حماس ..

يتناول إبراهيم القرن الأول ويأكله مبدئاً ثباتاً واستهانة ..

ويتناول الثاني محافظاً على ثباته واستهائه ..

ويتناول الثالث فلا يتغير من مظهره شيء إلا أنه ازدرد ريقه بصورة
ملموسة .

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة .

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوة إرادته ويسعل بشيء من
العنف .

وعقب تناول السادس يبدو كأنه يقاوم عدوا مجهولاً اندس في
أعماقه ، وتفيض عيناه بالدمع ..

وهو يأكل السابع يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة ..
ويصبح بعض ضعاف القلوب :

— أوقفوا الرهان ..

ولكنه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأما لا يستطيع النطق .
ويلتقى ماء عينيه بماء أنفه في مجرى على ذقنه وعنقه وينتابه سعال
متقطع .

ويستحيل وجهه قرمزياً وتنتفخ شفثاه ولكنه يلتهم القرون حتى آخرها
وسط التهليل والتصفيق ، ويربح ..

ولكنه لعله لا يشعر للنصر بلذة ، إنه صامت محتقن زائغ البصر، وعلى

هذه الحال ندخل حصه الدين . والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف
عنه من الإهمال والشقاوة ، يقول له :

— إبراهيم توفيق ، سمع ﴿ تبارك الذى ﴾ .

ويلبث إبراهيم صامتا مغموراً بهيمومه الخفية فيصيح به الشيخ :

— قف يا ولد وسمع ..

ولكن إبراهيم لا يتحرك على حين تصدر من الأركان همهمة يظنها
الشيخ لعبة متفقا عليها فيصيح :

— الأدب يا أولاد الكلاب ، قم يا مجرم .. قم لا بارك الله فيك ولا

فيمن أنجبك ..

ويقرب الشيخ منه في مجلسه في آخر الحجرة فيهوله منظر وجهه

فيتوقف متسائلاً :

— ماذا بك ؟ .. لماذا تبكى ؟

عند ذاك يتكلم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجب ويقول :

— أعوذ بالله .. يا أولاد الأبالسة .. كلكم مجرم وابن مجرم .

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعف في حجرة الطبيب .. ولكن

إبراهيم لا يكف أبداً عن التهريج والتحدى ..

الحكاية رقم (٢٢)

هاشم زايد يجلس إلى جانبي على قمطر واحد .

طويل القامة مفتول العضلات ولكنه وديع خجول وطيب وحسن السلوك . أمه أرملة غنية تملك بيوت زقاق برمتة وشريكة أكبر عطار في الحارة ، لذلك نخصه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد . تنهادى إليه نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلا أن يضحك فيراه المدرس دون الفاعل الحقيقي فينال جزاءه صفعة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ المؤدب .

ويفشل هاشم في المدرسة فيتركها ، وتموت أمه فيصير من أكبر أعيان الحارة في لحظة واحدة . وتفرق بيننا السبل . أراه أحيانا مستقلا الكارثة أو جالسا في ملابسه البلدية وسط هالة من المريدين . إنه يتحول إلى شخصية غريبة فأتجنب حتى مصافحته . إنه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته في العدوان وفرض إرادته على العباد . كيف يتحول الصبي الخجول الطيب إلى وحش شرس ؟. إني أفكر وأتخيل دون جدوى ..

لا يمر يوم في حياته بلا معركة ، اللكمة عنده أسرع من الكلمة ، والنبوت مفضل على اللكمة ، ويحل بالمكان فيتجنبه الناس كأنه وباء .. لو امتد زمن الفتوات إلى زمانه لفرض نفسه فتوة ، وهو يزعم القسم كما يزعم الحارة ، ويبيت أياما بسجن النقطة ولكنه يرشو المخبرين وشيخ



ولكنه يصب غضبه على جميع من شهد دموعه

الحارة .

تحف به دائما بطانة ولكن لا صديق له ، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يعرف عنه أى ولع بالنساء . وعلاقته بذكرى أمه مثيرة محيرة ، يتذكرها أحيانا بحزن عميق ويتنزل على روحها الرحمت ، وأحيانا ينتقدتها بمرارة وسخرية ، يقول :

— كانت بخيلة شحيحة ، تهمل نفسها لحد القذارة ، وتعامل الخدم بقسوة جنونية ..

ويغالى مرة فى الحملة عليها ثم — فجأة — يجهد فى البكاء ، ينسى نفسه تماما ويجهد فى البكاء ، ثم ينتبه لضعفه فيضحك ، ولكنه يصب غضبه على جميع من يشهد دموعه ، ويبدو أنه يضرهم أو أنه سيضرهم السوء ..

ويختفى هاشم زايد من الحارة ومن البيت .

وتطول غيبته حتى يذوب رويدا رويدا فى ظلمة النسيان .
وتسمع من يقول إنه هاجر ، وتسمع من يهمس بأنه قتل وأخفيت جثته ..

الحكاية رقم « ٢٣ »

ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف . أستيقظ مجذوبا من عالم الغيب بقبضة مبهمه . يلغى تيار من الطين . أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب الشر . أصوات بكاء تتسلل إلى من الصالة . تفرز أفكار السوء أسنانها فى لحمى ، ويتخايل لعينى شبح الموت ..

أثب من الفراش مندفعاً نحو الباب المغلق . أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول .

أرى أبى جالسا ، أمى مستندة إلى الكونصول ، الخادمة واقفة عند الباب ، الجميع ييكون ..

وترانى أمى فتقبل على وهى تقول :

— أفزعناك .. لا تنزعج يا بنى ..

أتساءل بريق جاف :

— ماذا ؟ ..

فتهمس فى أذنى بنبرة مختنقة :

— سعد زغلول .. البقية فى حياتك !

فأهتف من أعماق :

— سعد !

وأترجع إلى حجرتي .

وتتجسد الكآبة في كل منظر .

الحكاية رقم « ٢٤ »

القطعة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم
غمضات الأعين في حضنها . أنا وحيد في الحجرة أتابع المنظر باهتمام .
رفجأة تتردد أنفاس على كئيب منى فألتفت فأرى سنية . هي بكريه جارنا
ساعي البريد ، دقيقة القسمات خفيفة الروح ، مليئة بالحيوية والمرح ،
تكبرني بيضعة أعوام . تنظر إلى القطعة بشغف وتهمس :

— ما أجملها !

أوافق بإيماءة من رأسي فتقول :

— أحب القطط ، وأنت ؟

أجيب وشعوري بتوحدنا يغمرني :

— وأنا ..

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحس مس صدرها لكتفى تواصل
الحديث فلا أتابعها . إني أضطرم فيلتهم اللهب حيائي ، أستدير فأضمها
إلى صدري ، وتبدأ علاقة وطيدة ، مفعمة من ناحيتي بالسرور والندم .
أزداد بها معرفة ، جميلة جسورة بقدر ما هي حريصة . رغم سكراتها
المنغومة فيبيننا حدود لا يمكن تخطيها . ألبى إشاراتها ، أهرع إلى ظلها ، أما

هي فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة ، تجذبني إلى حديقة الورد ثم
تضرم فيها نيران الجحيم . لا نعرف السكينة ولا الأمان ، نقطف الثمار في
رعدة من الرقباء ، نجري في حومة الحب خطافين نشالين مجانين ، نراوح
بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين ، وتنقلب الحياة أغنية مجنونة
تفجر بالعذوبة والعذاب .

وتتزوج سنية عقب عامين من حبنا .

ونلتقى بعد أعوام وأعوام من زواجها .

أجدها مفرطة في البدانة ، غافية النظرة ، رزينة ، جليلة ، راسخة
الاستقرار والوقار . نتافح وتبادل حديثا روتينيا عن الأحوال والناس . لا
بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضت . سيدة مصونة ورمز حي
للأمومة ، ومثال للتدين والورع .

وأخطي الحاضر راجعا إلى عهد صباها النضير ، وهي فراشة متعددة
الألوان ، تفاحة طازجة ، وردة فواحة ، ينبوع متدفق .

تلك الأيام السعيدة .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم « ٢٥ »

فتحية ، الأخت الصغرى لسنية ، تماثلنى فى العمر .

مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق .

نظراتنا تتسلل فى استحياء فيستحوذ على أمل خلاب . أمد يدي

فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف ، وبرقة تقول لى :

— لا أحب العبث .

وأضيق بجديتها فأقول :

— إنك لا تعرفين الحب .

فتقول بأسى :

— أنت الذى لا تعرفه .

وتقول معاتبة :

— أثبت لى أنك تعرفه مثلما أعرفه .

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق ، ويصرفنى اليأس

فأتعزى بالزهد ، أمضى مصمما على النسيان ، ولكن ترجعنى الأشواق

أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقع فأجد نفسى مرة أخرى حيال قلب محب

وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين .

وطريقى شاقة وطويلة ، وفتاتى محبوبه كثيرة الخطاب . يقول لها

أبوها :

— معنى الرفض أن تنتظرى عشرة أعوام .

ثم يقول بحزم :

— القلوب تتغير بعد عشرة أعوام .

ويصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف إليه كسيرة القلب .

وتنجب أطفالا ، وترعى بيتا يعد مثالا للحياة الزوجية الموفقة .

وتغيب عن عيني وخيالى دهرا طويلا .

والتقى بها فى مأثم وهى فى الستين من عمرها ، أرملة منذ عشرة

أعوام ، فتتصافح وتطالعنى بنظرة صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة .

يتحرك فى أعماق شئ غامض . تجتاحنى موجة من التذكر والأسى ،

وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورأى .

وأعلم بأنها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز . وأجدنى

أحادثها رغم كل شئ بجرأة مستمدة من ضالة ما يتبقى من العمر ، وأعزم

على زيارتها . وأتخيل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبنى ، ثم أبتهل فى

خشوع إلى أشجان الوداع .

الحكاية رقم (٢٦)

ست نجية امرأة وحيدة .

عهدي بها وحيدة دائما ، في بيتها وحيدة ، مقطوعة من شجرة ، يرد اسمها بلالقب ، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية .

صورتها لا تنسى ، قصيرة جدا ، مطبوعة بطابع كساح يتجلى في تقوس ساقها وبروز ذقنها ، ولها أنف كبير مثل أذن حمار ، دميعة ولكنها غير منفرة لخفة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس . تجيء معها في زيارتها لنا بالمرح والضحك ، فلا نهاية لنوادرها وقفشاتها ، وأتصورها دائما أسعد الناس .

بيتها مزرعة ققط وكلاب ، تولد وتنشأ في عزها مكرمة مدللة ، لكل اسمه وخدماته الغذائية والصحية والرياضية . هي مولعة بهن وهن مولعات بها ، وفي رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحي الخصومة الغريزية بين الكلاب والققط فهن يعشن في اخاء ومودة .

تسألها أمي :

— لم نرك من مدة يا ست نجية ؟

فتقول :

— كانت نرجس متوعكة المزاج .

أو تقول :

— كانت بركة تلد .

ودائما تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها ، وتحكى عن علاقتهما الخاصة باعتزاز وتنوه بنوادره .

تقول بجدية :

— أمس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهي قبيل الفجر .. أو تقول :

— وجدت بلاص العسل فارغا فقلت له بالهنا والشفاء ..

بالصدق والجدية تتكلم ، لعلها لا تتخلى عن المزاح إلا حين الحديث

عن أخيها الخفي ..

وتزعم أيضا أن الكلاب والققط تخاطبها بلغاتها الخاصة وأنها تفهمها ، ولكي تثبت صحة كلامها تمضي في محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق في الضحك .

ولها خبرة راسخة في قراءة الفنجان والورق وتفسير الأحلام ، وتتهم أحيانا بممارسة السحر والشبثية حتى إن أم عبده لعنتها جهرا في الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان ، ولكن طبيعتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس ..

لا يكاد يطرق بابها أحد ، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها ، حتى الخدم لا يطبقون خدمتها ، فهي وحيدة في بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والققط والعفريت المؤاخي ..

تقول لها أمي وهي بصدد الحديث عن وحدتها :

— على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل .

فتجيبها جادة وهى تبتسم :
— ستنبح الكلاب حول جثتى وتموء القطط ، ويحضر أخى لبغض
عينى ، ثم يفعل الله ما يشاء .

الحكاية رقم « ٢٧ »

تقول ضيفة لأمى :
— نظلة ، الله يسامحها .
فتسأل أمى عن الأخبار فتقول الضيفة :
— ما زالت بالجدع حتى أوقعته فتزوجها ، رعاها وجعلها من أسعد
نسوان الحارة ، وها هى الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض ..
وتسأل أمى عن حاله فتواصل المرأة :
— طريح الفراش ، وحيد ، ييصق دما ويسعل حتى تنخلع ضلوعه ،
يتمنى الموت ، ولما أزوره يقول لى : « انظرى يا امرأة خالى ما فعلته
نظلة » فأشجعه وأواسيه وقلبى يتقطع ..
وأتحيل أن المريض والدم والمرأة الفاجرة .
ويمضى زمن ثم تزور الضيفة أمى وتقول :
— شوفى العجائب ، لم يكذب شهر على وفاة المرحوم حسن حتى
أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوجها ..
فتهتف أمى :

— نظلة !؟

— ومن غيرها يفعل ذلك ؟ ، إلهى ينتقم منك يا نظلة يا بنت أمونة ..
وأتحيل أنا الميت والعاشق والفاجرة .
ويمضى زمن . ها أنا أذاكر دروسى فى حجرتى فيترامى إلى صوت أمى
وهى ترحب بضيفة قائلة :

— أهلا بك يا ست نظلة ..

وأتساءل باهتمام ترى أمى الفاجرة ؟

وأتسلل إلى الصالة محتميا بظلمتها وأرسل الطرف إلى حجرة
الاستقبال ، فأرى امرأة — بين الأربعين والخمسين — بضرة الجسم حسنة
التكوين أنيقة الملبس . أعترف بأنها امرأة مثيرة .. وأنها تستحق أن
تُعشق . وأعرف عنها معلومات جديدة ، منها أن زوجها الثانى — خليل
— توفى أيضا بعد أن أنجبت منه ولدا ، وأنها تركت شقتها قبيل القبول لتقيم
فى شقة صغيرة فى بيت قريب هنا ، وأدرك أيضا أن أمى لا ترحب فى
أعماقها بزيارتها لنا . وأقول :

— إنها شريرة !

ولكن أمى تقول بحذر :

— الله وحده هو المطلع على الأفئدة ..

— تعطفين عليها رغم أنك لا ترحبين بها .

— سمعت الكثير ولكنى أرى امرأة ضعيفة وأما لولد لا رجل لها ولا
مال ..

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة . وتحيم على ذكريات

المرحومين حسن و خليل ولكنى لا أبالى . وأشعر بأننى مقبل على مغامرة
أخطر من جميع ما مرى من مغامرات . ولكن القصة لم تبدأ ..
ذات صباح تهب حارتنا صرخة مدوية .
ينتشر خبر بأن جارة ألفت على وجه نظلة ماء نار متهمة إياها بمحاولة
خطف زوجها .

تفقد نظلة سحرها إلى الأبد .

تضطر إلى العمل فى حمام الحارة .

يشندى الحزن فترة من الزمن وأردد ما سبق أن قالته أمى :

— الله وحده هو المطلع على الأفئدة ..

الحكاية رقم « ٢٨ »

يزورنا كثيرا .

أحبه لأنه يكاد أن يكون صورة متقنة لأبى . من أحداثه المكررة فى
الحاح أبدى أن يخاطب أبى قائلا :

— أيرضيك حالى هذا يا خالى ؟

فيقول له أبى :

— يا محسن ، اعتمد على الله وعلى نفسك ..

— يؤلمنى أننى غنى بما أملك من مال فى الأوقاف ولكنى عاجز عن
صرف مليم واحد منه .

— هذا حال كثير من المستحقين .

ويضطر إلى أن يعمل كاتبا بثلاثة جنيهات شهريا فى وكالة الأخشاب
بهارتنا . وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة
العاطلة من الجمال والمال . ويتقدم به العمر دون أن ينبجى فيمضى حياته
متحسرا . وتضرع زوجته إلى الله ألا يحل عقدة الوقف ، وتقول لأبى :

— لولا الفقر لفجر ، لولا الفقر لطردنى ..

لا حديث له إلا الوقف ، الوقف يا خالى ، الوقف يا امرأة خالى ،
وأسمعه يردد بحماسة :

— يارب ، نفسى فى لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائق وأنتى ،
أنتى حقيقية لا تمثال خشبى فى هيئة امرأة ، يارب نفسى فى ولده أو حتى
فى بنت !

وتتقدم به السن أكثر ، وتدمع عيناه أحيانا وهو يرثى نفسه حتى ينال
منى التأثير .

وتندفع الأحداث فغير من إيقاع الزمن ورؤيته وتنحل عقدة الوقف !
ويرقص ابن عمى من الفرح فأسأله :

— ما مقدار البذل الذى سيصرف لك ؟

فيقول بزهو :

— أربعون ألفا من الجنيهات ..

يدور رأسى . أتفرس فى وجهه بعجب . إنه بدنو من السبعين ، أبيض
الرأس ، ضعيف البصر ، هزيل الجسد ، ليس فى فيه سنة ولا ضرس .
أسأله :

— ماذا ستصنع بثروتك ؟

فيقول متهللاً :

— قلبي يحدثني بأنتى سأمرح في نعمته عز وجل ..

ثم يستطرد :

— سأشتري بيت عيشة الحكيمة ، وأركب طاقم أسنان ،

وأ تزوج ..

— تتزوج ؟

— وسأنجب أيضاً ، سوف ترى ..

ويجدد نفسه بتصميم كما يجدد الحياة من حوله . أبقى على سوسن ، ولكنه يتزوج من توحيدة بنت بياع الطرشي وهي بنت جميلة دون العشرين .

ويخبرني ذات يوم قائلاً :

— ولى العهد يتكون بإذن الرحمن ..

ويفرط في الطعام بنهم لا يناسب سنه ، ثم يلزم الفراش عقب ستة أشهر

من الزواج .

وأعوده فيقول لي بصوت خافت :

— لست نادماً ، أبداً ، الحمد لله رب العالمين ..

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة .

الحكاية رقم « ٢٩ »

على البنان صاحب محل البن في حارتنا صديق . يموت أبوه فيحل مكانه وهو في طور المراهقة .

وذات يوم يسألني وأنا أجالسه في المحل :

— هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرانة ؟

فأجيبه ورائحة البن الصارمة تسيطر على حواسي :

— أعرفها طبعاً ، حارتنا كلها تعرفها ..

— ما رأيك فيها ؟

— بنت فائقة الجمال وهي تشارك أمها في العمل ..

— ماذا تعرف عن أخلاقها ؟

فأضحك قائلاً :

— ما أكثر ما يقال !

— ولكنني متأكد من الكثير ..

ويحكم العمامة فوق رأسه . ويقول :

— أعرف أنها سقطت أول ما سقطت مع حمدان صبي الفران ..

أهز رأسي موافقاً فيمضي هو قائلاً بنبرة اعترافية ثقيلة :

— ضبطت أيضاً مع الحنفى صبي محل الطرشي تحت القبو .

— إنك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من الضروري ..

— وقيل كلام أيضا عن علاقتها بخفير الدرك !
فأسأله ضاحكا :

— هل تنوى كتابة سيرة لها ؟

— وأيضاً مع حسنين السقاء !

فأغرق في الضحك وأقول :

— إنه لسلوك يستحق التأمل .

— ولعل ما خفى كان أعظم .

— من يدرى فلعلها ليست الوحيدة في حارتنا !

فيتنهد قائلاً :

— ولكنها الوحيدة التي أحبها !

فأخرج دفعة واحدة من جو المرح وأسأله :

— أتريد أن تنضم إلى طابور العشاق ؟

فينظر إلى طويلاً ثم يقول :

— كلا ، لقد قررت أن أتزوجها !

— لا أصدق ..

فيقول بمجد وتجهم :

— إنه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه ، ولا يهمنى ما يقال !

وينفذ على البنان قراره .

الحكاية رقم « ٣٠ »

يشب بطريق الحموى فيجد نفسه متزوجاً .

كان أبوه مقاول بناء أمياً فأراد أن يفرح بآخر العنقود في حياته فاختار

له بنتاً وزوجه منها وهو تلميذ في الرابعة عشرة من عمره .

يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه

المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .

وينجح « بطريق » في حياته المدرسية ويتفوق فيكمل تعليمه العالى ثم

يبحث إلى إنجلترا عامين . وعقب عودته يتعذر عليه التوافق مع ماضيه ،

زوجته خاصة ، يتنافران في كل شيء ، يضيق بجهلها وخرافاتها ، يتهاوى

في الغربة والفشل ، ويقول لخاصته :

— لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا ..

ويتخذ قراراً حاسماً وقاسياً ، من خلال معاناة طويلة ، فيطلقها .

ويلهج كل لسان في الحارة بلعنه ومروقه ، ولكنه يلقى المذممة المعادى

بيروود ، بل ويتحداه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية ، يزعم

أنها فرنسية ، ويصر أهل حارتنا على أنها رومية من بين السوريين !

ويذهبان ويحيثان معا وهى تشع سفورا ونورا ، ترمقهما العين

بازدراء واستنكار ، ويترحم المترحمون على المعلم الحموى .

وتتطير تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها

بالرجال ، وما يقال عن إدمانها الخمر ، وعن صحة عقيدتها الدينية ، هل يعتبر إسلامها حقيقيا ؟ ، هل تنشئ أبنائها نشأة إسلامية سوية ؟
يعانى بطريق الحموى ذلك كله ويتصدى له بما يستطيع من قوة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهب عليه بلا رحمة . ها هي زوجته تضيق بالحارة وأهلها ، وعاداته الأصيلة تتعرض لمؤاخذتها وسخريتها ، وهو كلما تهاون في حق طولب بالمزيد من الاستسلام ، حتى يسلم في النهاية بأنه غارق في التعاسة حتى أذنيه .
ويقال له :

— طلقها وأمرك الله ..

ولكنه يجيب بإصرار :

— محال أن أسلم بالهزيمة ..

أما هي فتتترح الطلاق من ناحيتها ولكنه يرفضه بإباء .

وإذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن .

وتمضى الأعوام وبطريق الحموى أعزب لا يفكر في الزواج .

يقترح عليه إخوته أن يرد زوجته الأولى فيقول ساخطا :

— هذا سخف !

— هل تعتزم استرداد الثانية ؟

— إنه الجنون نفسه .

ثم يقول برزانة وتأمل :

— لا بد من الزواج ، وعاجلا أيضا ، لم تضع التجربة هباء ، فإني على الأقل الآن أعرف ما أريد ..

الحكاية رقم « ٣١ »

من قصص الحب المؤثرة في حارتنا قصة سيدة كريم .

ينشأ حب عفيف مستور في خفاء بينها وبين إدريس القاضي ابن الجيران ، رغم التكم والحياء تفضحهما النظرات وأحوال العاشقين .
ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرس اللغة العربية وعم حسنين القاضي بياع الحلوى . أدب ابنك ، ابني مؤدب ، كلمة من هنا وكلمة من هنا ، فيوشك الكلام أن يتحول إلى فعل لولا تدخل أهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحد الأعين فيعاني العاشقان في صمت وقهر . وعندما ينتهى إدريس من المرحلة الثانوية يقنع أباه بأن يخطب له سيدة ، فيمضى الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبا يد ابنته ، ولكن الشيخ يقول له بحفاء :
— ابنك تلميذ وبتى لا يمكن أن تنتظره ..

ثم يقول الشيخ لبعض خلائه :

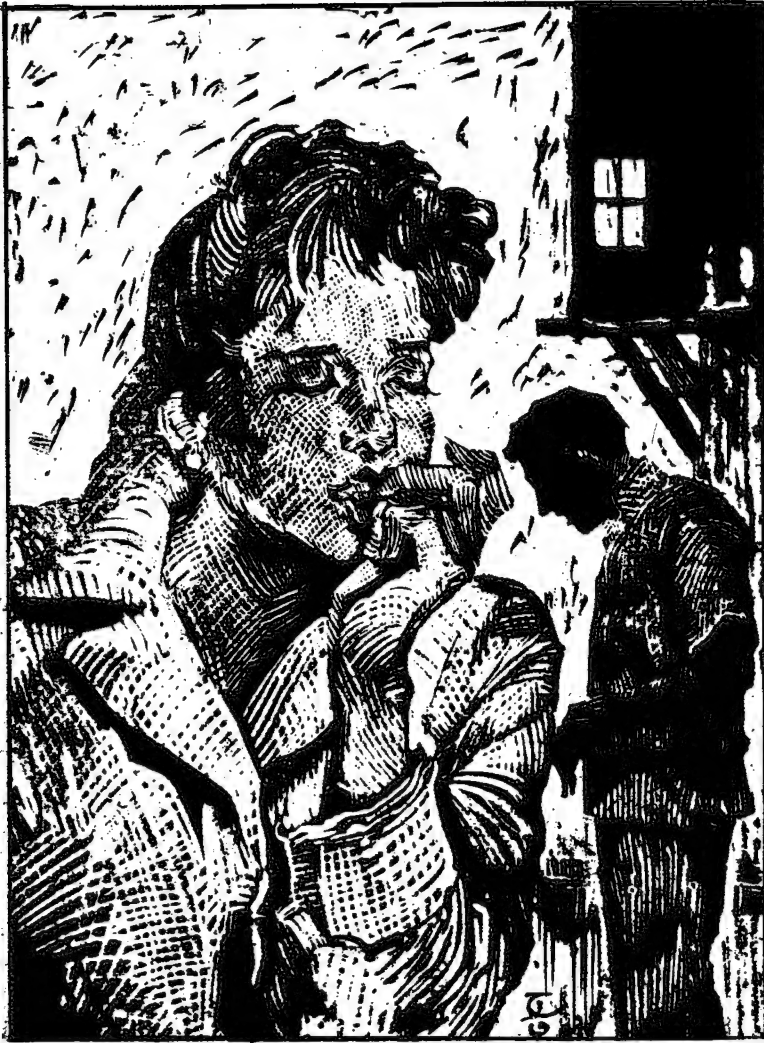
— كيف يطمع في مصاهرتي ذلك البياع الحقير !؟

ويتقدم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيدة .

ولكن سيدة ترفضه ! . ليس الرفض بالأمر الهين ولا المألوف ، إنه في الواقع ثورة غير متوقعة أذهلت الشيخ والجيران ، وزلزلت الأسرة بالغضب

(حكايات حارتنا)

والعنف والتأديب ، ولكن سيدة تصر على الرفض ، وتصارع أباهما بأنها تمارس حقها الدينى !
وكالعادة المزدولة فى حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتخلق الأوهام ، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقي درسه فى الفصل .
وتتحمل سيدة مسئولية موت أبيها أمام الأسرة والناس . تصبح ملعونة شوما متهمة متجنية كالمرض المعدى .
وتترجح الأعوام فلا يتقدم لها خاطب .
وينجح إدريس فى دراسته العالية فيتقدم إلى عم حبيته طالبا يدها .. !
ولكن لا يلقي إلا الرفض والتجهم ، حتى الأم لا توافق ..
وتمر الأعوام ، ثقيلة عند المعاناة ، خفيفة لدى العد والإحصاء ، سيدة شبه سجين لا يطلبها أحد ، وإدريس موظف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج . ولا يشك أحد من المقربين إليها أو المقربين إليه فى صمود الحب وإصراره وتحديه المتواصل لكافة العراقيل .
ويندب إدريس للعمل فى بعض البلاد العربية وتنقطع أخباره أعواما ، على حين تجاوز سيدة ربيع الشباب ويغض روتق صباها وتلبسها صورة تعاسة مجسدة .
ويرجع إدريس من غربته رجلا فى منتصف الحلقة الخامسة . لم يعد أحد يذكر قصته ، ولم تعد القصة تثير أى اهتمام عند من يتذكرونها .



وتحد الأعين فيعاني العاشقان فى صمت وقهر

وتعرف حقيقة غير مألوقة في حارتنا وهي أن إدريس ما يزال أعزب ، لم يدخل دنيا ولم يمارس أبوة .

ويمضى إدريس إلى أم سيدة يطلب يد ابنتها !
ويدهش كل من يعلم بالخبر معلقا عليه بأن سيدة لم تعد عروسا تسر الحبيب .

ويتم الزواج متوجا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء .

الحكاية رقم « ٣٢ »

سنان شلبي يعمل في مطحن الغلال فيما يلي السيل القديم . تلوح منه نظرة نحو النافذة في البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجهها أسر فؤاده وسيطر على أقداره . بأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوة لم يكن يتصور وجودها بحال . وقال لنفسه : « لقد جننت يا سنان وما كان كان » .
والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكن أم سعد هي التي تتصدى للمعاملة والتسوق ، وهي امرأة معروفة في الحارة . والعلاقة بين أم سعد والجميلة غامضة ، عرضة لشتى الاحتمالات ، فالأسرة لا تزور ولا تزار ، فمن يكون سعد ؟ ، أين هو ؟ ، والمرأة أمى أم الجميلة ؟ ، قريبتها ؟ ، خادمتها ؟ ، ثم تنتشر أقوال تسيء ولا تسر .

يقول سنان شلبي :

— أريدها ، إني مجنون بها ، بالحلال أو بالحرام أريدها ، ولو دفعت

حياتي الغالية ثمنها لها ..

ويوثق سنان علاقته بأم سعد في ترددها الدورى على المطحن . ويلمح لها عن رغباته الخيالية ولكنها تتجاهله وتشجعه في آن فينفحها بالهدايا الصغيرة التي يطيقها من اللبان والحنيت والسكر ، وعند ذاك تقول له :

— الجوهرة غالية وأنت رجل على قد حالك !

فيقبض الفقير قلبه ولكن الجنون يبسطه فيقول :

— ربنا يقدرنا .

ويدرك لتوه أن الجميلة تحترف الحب ولكن ذلك لا يشبه عن سعيه فإن جنون العشق يتسلط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختيارا أو مجالا للتردد .

وتقول له أم سعد :

— الأمر ليس يسيرا ، يوجد حراس لا تراهم ، وغاية ما أستطيعه أن أدلك على الطريق ..

وتمد له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنها ترددها بإباء ولا تقبل بأقل من عشرة قروش أو عشر أجر سنان في شهر كامل ! . وتقول له :

— أتعرف المعلم حلمبوحة ؟ .. قل له إنك حاضرا من طرفي ، إنه راعيها وولى أمرها وهو الذى جاء بها إلى حارتنا من المجهول ..

فيقول سنان بضيق :

— ظننتك ستوصليننى بغير وسيط ..

— لا أملك إلا أن أدلك على الطريق ..

ويذهب سنان إلى حلمبوحة في دكانه الصغير الذى يبيع فيه الدخان

ويرد إليه الجنه بمحبة . يتناول سنان الجنه بقلب طافح بالياس ثم يمضى
بلا هدف . وتقوده قدماءه إلى البوطة فيسكر حتى يقول لنفسه :
— سأبلغ منى ولو طرت إليه فوق سحابة ..
ويذهب من توه إلى أم عليش بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح
أم على الداية فتقول له مستاءة :
— إني لا أتعامل مع الزبائن فى حجرى ..
فيرمى بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلى عنها إلا وهى جثة
هامدة ..

إنه يعى تماما ضرورة أن يهرب فى الحال قبل أن تكشف الجريمة . لا
يشك أن كثيرين رأوه وهو يتخبط فى الحارة ثم وهو يتسلل إلى بيت أم على
الداية . إنه يعى تماما ضرورة الهرب ولكنه لا يفكر إلا فى الحب .
ويذهب إلى المعلم حلمبوحة فينقده الجنه ثم يمضى إلى هريدى
الحملاوى بالجنينين فيصحبه الحملاوى إلى بيت أم سعد .

يقول الرواة إن سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت . وفى
نشوة الخمر ارتقى على قدميها فى هيام ، وما يدرى إلا وهو ييكى من
الوجد . واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال :
— لقد قتلت ..
ولم تفهم المحبوبة كلمة ، ولم يقدم هو على الفعل .

والمنزول . يجده كما يعده عجزا أعمش جاف الخلق فيحبيه ويقول له
همسا :

— إني قادم من طرف أم سعد .
فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم :
— جنه مصرى !
فيقول سنان بارتجاع :
— إنه مبلغ جسيم يا معلم ..
فيرض عنه قائلا :

— وفر نقودك واذهب لحالك ..
لا شيء يمكن أن يثنى سنان عن مطمح . إنه يبيع خاتمه الفضى
الموروث عن أبيه بجنه وبهيه حلمبوحة مسلما أمره للمقادر . يتفحص
الرجل الجنه ، يدسه فى جيبيه ، ثم يقول لسنان :
— لم يبق إلا هريدى الحملاوى ، تعرفه ؟
يفوص قلب سنان فى صدره ويسأله :
— ما شأنه ؟

— إنه خطيب البنت ، ولا يرضى بأقل من جنينين ..
فيتأوه سنان قائلا :
— إنها ثروة ، ثم إنها سلسلة بلا نهاية ..
— هريدى ختام السلسلة ..
— ولكن من أين لى بالجنينين ؟
— خذ نقودك واذهب ...

وانطرح الزمن خارج وعيه حتى هل أول شعاع للضياء .
وارتفعت من الطريق جلبة ، ودقت الأرض أقدام ثقيلة ، فتلقى سنان
أول إشارة خفية ، واستسلم بأريجيه للمقادير ..

الحكاية رقم « ٣٣ »

مرت فترة بحارتنا يمكن أن تسمى بعصر زينب .
الأب يباع فاكهة ، والأم بياعة بيض ، وزينب آخر عنقود مثقل
بالذكور . وهى جميلة ، فلتة رائعة من الجمال ، وفى جمالها تتلخص
حكايتها .
فى طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدي ، فى صباها تألقت تباشير
الفتنة ، فى الشباب استوت آية من البهاء والأبهة .
ويقول زيدان الأب لزوجته :

— البنات يجب أن تحجب فى البيت .
فتوافق الأم كارهة إذ أنها تفضل بطبيعة الحال لو كان فى الإمكان أن
تسعى زينب لرزقها ..

ويتكالب الخطاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلاب ، وتقول الأم :
— من العدل أن يكون حظها فى قوة جمالها ..
لذلك ترفض يد ابن أختها سواق الكارو ، فتتمزق أواصر الأخوة ،
وتنشب معركة بين الأختين تتفرج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجب

ولا عن .

ويتقدم لها فى وقت واحد تقريبا حسن « صبى طرايشى » و خليل
« صبى جزار » فيجران إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين
مستديتين .

وإذا بفراج الدرى المدرس يطلب يدها ، أفندى محترم وموظف
حكومة ويعتبر بالقياس إلى بيئة زينب حلما من الأحلام . وتقول الأم :
— هذا من نرحب به ..

ولكن على يباع القلل يعترض سبيل المدرس ذات يوم ويهمس فى أذنه :
— إن تكن تحب الحياة حقا فابعد عن زينب ..

ويستعين المدرس بقريب قوى من أهل التحرش والتحدى فيعتدى الرجل
على يباع القلل ، ولكن يباع القلل يضطغنها فى نفسه ويتربص لفراج
افندى ثم يفقأ عينه !

عند ذاك يحفل المحترمون من أبناء حارتنا بإشارا للسلامة ولا يبقى إلا
الحرافيش .

وتعتف الأم المغيظة :

— يا ميلة البخت ..

وتحتمد المنافسات ، وتتعدد الاعتداءات ، وتتساقط التهديدات ،
ويلتزم آل زيدان الحياء التام خوفا من العدوان ، ورغم بلواهم وكرهم
تلفحهم أنفاس الحاسدين وألسنتهم ، حتى يقول زيدان لبعض أصدقائه :
— لقد حلت بنا نقمة اسمها الجمال !

وتتكرر الخناقات وتكثر الإصابات ، وتمضى زينب وأسرتها لعنة

مجسدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفية في الانتقام .
عم زيدان لا يجد فرصة ليتنفس في هدوء ، ويخاف أن يغدر غادر
بزينب نفسها ..

ويطلع صباح فلا تقف لآل زيدان على أثر . ويتفشى الوجوم
والكدر . وأمنى بخيبة لا يدري بها أحد . وبجزن أتساءل :
— ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء في حارتنا ؟

الحكاية رقم « ٣٤ »

هنية بنت علوانة الدلالة من بطلات الحب في حارتنا .
أتساءل كثيرا عن سر حبها لحمام صبي الخياط البلدى . إنه فتى سىء
الصورة والسمعة ، شرش الطباع ، تعكس عيناه نظرة تحد وعدوان ،
برتدى جلبابه على اللحم ويمضى حافى القدمين . ثم إن هنية بنت متعلمة ،
مكثت في الكتاب ثلاث سنوات ، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء
عم ، وأما ميسورة الحال ، ووقت الغداء تفوح رائحة القلى من
مطبخهم .

وهنية ترفض يد حامد المراكيبى يباع المراكيب عندما يتقدم لخطبتها .
وتبكي الأم بجمرة وهى تحكى مأساتها لأمى :
— تصورى ، حامد المراكيبى الرجل الكامل صاحب القرش .
فتساءل أمى :

— كيف وبتك عاقلة وحافظة كلام ربنا ؟
— قالوا لى إنه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت
الأضرحة ونذرت النذور .

ولكن هنية تصر على رفض يد حامد . وتغضب أمها وتلطمها على
وجهها وتصيح بها :

— تفضلين عليه المحرم ؟ ، بُعدك ، ولكن مكتوب عليك الشقا .
ويتراجع حامد المراكيبى ويتلاشى ، ويبدأ حمام جادا في التفكير في
أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه . غير
أنه يتهم في هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيقبض عليه ويزج في
السجن عامين .

تبهج علوانة الدلالة بالحل الذى جادت به السماء وتقول لهنية :
— أرايت ؟ ، سبحان الله الذى لا يعلو على برهانه برهان .
ولكن هنية تصر على رفض حامد المراكيبى وتغرق في حزن عميق حتى
يشفق عليها الغاضبون . ويقول كثيرون إنه لا حيلة لها في الحزن ، وإن حمام
لا يقتلع من قلبها بلا أثر . ولكنها تصر على الرفض حتى يمر العامان ويرجع
حمام إلى الحارة . وتذب الحياة من جديد في هنية ويجن جنون أمها . ويلقى
حمام صعوبة في العودة إلى عمله الأول أو الالتحاق بأى عمل آخر . ثم
يرى سارحا بلحمة رأس وطبلية ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس
المال ، ولا يعلم إلا فيما بعد أن هنية هى التى أمدته بأسورة ذهبية .
وتثور علوانة ثورة عنيفة وتستعدى على ابنتها القريب والجار ، غير أن
هنية تعقد قرانها بحمام في القسم وتحت حماية الشرطة .

وأشهد بأنها زبجة موققة ، فهنية تشاركه في العمل وتدبره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتت حتى ينجح أو بالأحرى تنجح هي في فتح دكان له ، أما الذكريات القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها أحد .

الحكاية رقم « ٣٥ »

في موسم القرافة نزور أحيانا حوشا غير بعيد من حوشنا . أرى رجلا يقيم في حجرة المواسم إقامة دائمة كما يستدل من وجود الفراش والكنبة والصوان . أسأل أمي عن هويته فتقول :
— ابن عمه أبيك رضوان أفندي .
— لماذا يقيم في الحوش ؟

تتجاهل وقتها سؤالي ، وألاحظ خلو الحجرة من الرجل في عام تال ، وأعلم أنه انتقل من الحجرة إلى القبر ، ثم أسمع قصته فيما بعد لمناسبة لا أذكرها .

إسرة رضوان أفندي تتكون منه ومن حرمه ومن صبي وصبية . الأم تشغف بالصبي على حين يشغف الأب بالصبية . يناهز الأخوان البلوغ فيمارس الأخ قوته في معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتى تضيق به وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه ، أو على قول أمي :

— سكن الشيطان بينهما !

يتطور النزاع إلى خصام أغبر ، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر ، حتى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنى كل للآخر الهلاك والفناء جهرا وبلا تحفظ .

وفي ختام المرحلة الثانوية يمرض الشاب بالسل ، ثم يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستة أشهر . موت قاس مطوى على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الأم وتلاشت آمالها في الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم ، ويقول رضوان لأبي :

— إنها عملية نشل ، والخجل يمنعي من مواجهة أمه .

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض أخته بنفس المرض . وذات ليلة يجيئنا رضوان أفندي وهو يجري حافيا من أقصى الحارة ، مشعث الشعر دامي العينين فتهب الأسرة نحوه متسائلة وهي على يقين مما تتساءل عنه . يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفاً فيهما نور الحياة :

— انتهى كل شيء !

يصفى الرجل بعد ذلك تجارته ، يهجر بيته إلى حوش القرافة وقيم هناك على مقربة من قبر الفقيد . وتصر حياته على الامتداد حتى يوافيه الأجل .

أما الأم فهي تواظب على زيارتنا ، وأراها وأتصل بها وأنا صغير وهي عجوز . يبدو أنها لا تذكر الماضي ، وتحب التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت . أتذكر جلستها وراء الأوراق المفندة وتكومي أمامها في تشوف ، وهي تشير إلى صورة وتقول :

- في سكتك واحدة ليست من دمك .
- وتبتسم كثيرا فأقول لأُمى :
- تيزة وليدة خفيفة وتحب الضحك .
- فتتمم أُمى :
- ربنا معها ومع كل جريح .

الحكاية رقم « ٣٦ »

في إحدى ليالى الأرق أرى من نافذتى هذا المنظر .
أرى شيخ رجل يترنخ ، يتلاطم مع الجدران ، يتعثر فيقع ثم يقوم
بمشقة ، تندلق من فيه السائب أغنية « أنا أبله كنت هبلة » ثم يندفع فاقد
التوازن كأنه ثور يتوثب للنطح ، وبعد مغالبة للقوى الجهولة ينطرح
كالقتيل .
يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم — لعله فران — ليطرحه على لوح
عجين ثم يتعاون مع آخرين على رفعه ويمضون به ..
يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنخ ويتعثر ويقوم ويقع وإذا
بالسكران الأول يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر :
— إخص ، حقيقة إنك مرة ، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك
عليك الناس ؟. سفخص .
في زمن متأخر ، وفي ظروف غاية في الجدية ، يعاودنى ذلك المنظر
حاملا إلى معانى جديدة لم تخطر لى على بال من قبل حين رؤيته .

الحكاية رقم « ٣٧ »

عم ينسون الصرماق كهل لا تشوب سمعته شائبة . يموت ابنه رمضان
عقب مرض لم يمهله طويلا . يحزن الكهل كالمتوقع ولكنه يقدم على فعل
غريب يجعل منه أحدى الحارة قبل أن تحف دموعه . ما ندرى إلا وهو
يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفى ، يعقد زواجه عليها ولما يمر على
الوفاة شهر واحد ! هل جن الرجل ؟
وعلى فرض جنونه ألا يسعه أن ينتظر عاما أو بعض عام ؟
وكيف توافق دليلة وفارق السن بينهما أكثر من أربعين عاما ؟
ولكن الخبر حقيقة لا شك فيها ، وها هى دليلة تنتقل إلى بيت عم
ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية أسرته .
وتتولى الألسنة هامسة ، كان شئ بين المرحوم رمضان ودليلة ،
يسره الزواج الوشيك ، والثقة بغد لم يأت ، وتدخل الموت فقلب
الميزان ، وتبدد الأمان ، فسقطت دليلة في مأزق بلا حماية ولا أمل .
وتقف أمها على السر ، تقضى به إلى أم رمضان ، وترمي به هذه على
زوجها المهزون ، مصيبة جديدة ، مصيبة بكل معنى الكلمة ، ولكن لا
يمكن تجاهلها بحال ، البنت في مأزق ، الجاني هو الابن الذى يسأل له
الرحمة ، ويفكر ويفكر ثم يعزم ثم يقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا .
تصبح دليلة زوجته ، وتلد فى بيته وليدها .

وثمة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء .
وآخرون في غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون .
أما غواة السخرية فيشيرون إليه ثم يتهايمسون :
— هذا هو أبو حفيده .

الحكاية رقم « ٣٨ »

وأنا ألعب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .
أكثر من صوت يتساءل :
— خير إن شاء الله .
فيبشرنا أحدهم قائلا :
— قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل .

يتناهى الخبر إلى فتحة قيسون وهى تغسل ملابس فى طست أمام
مسكنها . تنتثر واثبة المالدوغة ، تفك عقدة جلبابها ، تربط منديلها
حاشرة ما تبعثر من شعرها تحتها بلهوجة ، تتناول ملاءتها من فوق حجر
فتتلفع بها بسرعة مجنونة محرقة طرفيها كجناحي طائر كاسر ، تلوح
بقبضتها مهددة ، ترجع رأسها إلى الوراء متوثبة ثم تندفع فى طريقها على
يقين من هدفها وهى تصيح :

— والنبي ومن نبي النبي لأسود حظه وأطين عيشته وأشوه وجهه حتى

أن أمه نفسها لن تعرفه .
وتمضى مخلفة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة فى الاستطلاع
وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة .

الحكاية رقم « ٣٩ »

صبرى الجوانى يثير دائما عاصفة من التساؤلات .
من بيئة كادحة ، يعمل فى دكان خردوات ، ثم يندب للجولان بشتى
الخردوات فى الأحياء المجاورة . يتغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير ،
تحسن صحته ويكتسى بحلة النعمة الزاهية . ينتقل إلى مسكن جديد ،
يرى وهو راجع حاملا ورقة لحمه وفاكهة الموسم ، يجلس مساء فى المقهى
يدخن البورى ويحتسى الزنجبيل ، ويقضى بعض السهرات فى غرزة
المواويل .

ويتزوج من بنت ناس ، ويرتدى البدلة بدلا من الجلباب ، وتنطق
ملاحه بالرضى والثقة والأمان . وفى ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر
ويرقص ويغنى ويبدى من فنون الانبساط ما لا يتصوره عقل .
وعقب الزفة يغادر الفرحة ليرجع إلى بيته ولكنه لا يرجع إلى بيته .
يختفى فلا يقف له على أثر أو خبر .

الحكاية رقم « ٤٠ »



.. وأن الحلم يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها

يجلس وراء نافذة مصفحة بالقضبان ، يحملق في لا شيء ، تتحجر في
عينيه نظرة لا معنى لها ، رأسه صغير أصلع ، يغمغم بين آن وآن :
— أين أنت يا حبيبتى !
نرمقه من بعيد بحب استطلاع ، نتجنب إثارتة كما نبه علينا ، نتهاشم :
— انظر إلى عينيه !
— ماذا يعنى ؟
— إنه مجنون .
كان يرى قديما هائما صامتا ، يتابع امرأة محجبة باهتمام ، يعترض
طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة .
ويقال إنه رأى في حلم بنتا جميلة شغف بها أيما شغف ، وأن الحلم
يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها .
ويفقد الصبر فيأخذ في التهجم على النساء ويهم بجذب النقاب ،
ويتعرض بذلك للزجر والضرب والعنف . ويؤمن أهله بأنه ممسوس
فيطوفون به على الأضرحة والشيخ لبيب ولكنه لا يشر بشفاء .
ويقولون لأبيه :
— المستشفى لأمثاله وسلم للمقادير .
ولكنه يحبسه في الحجرة ويصفح النافذة بالقضبان .

ويقيم نهاره وراء النافذة ، يخلق في لا شيء ، ويتقدم في السن ،
ويغمغم من آن لآن :
— أين أنت يا حبيتي ؟

الحكاية رقم « ٤١ »

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناي . لا أتصور أن يوجد
بين البشر من هو أطول أو أعرض منه . مؤذنة ، يتحسس طريقه بنبوت
رهيب ، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان ، يقول أهل حارتنا إنه
من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا .
وهو الشحاذ الوحيد في حارتنا فمنذ احترق التسول لم يتجرأ شحاذ
آخر على ترديد « الله يا محسنين » .
يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو ، معتمدا على نبوته ، بصمت
طويلا ، ينفجر بصوت كالرعد « يا أكرم من سئل » ، يخبئه الطعام في
أوقاته ، تتراكم الملايم في جيبه ، يتبادل التحيات مع السابلة .
وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرقة المستضعفة فإنه
مثار للابتسام ، ولكن بلا حق أو حقد ، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه
أنه لا يستثمر قوته في العدوان .
ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى .

ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة — شحاذ ضرير أيضا — من القبو

راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر ، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد
ليستريح من عناء يوم مظفر .
ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبى مدخل القبو كأنهما
حارسان . ويتلقى القرد بأذنيه الحادثتين رسائل خفية من حركات شفتى
زلومة ، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية ، يتجه رأسه نحو
الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز .
ويهتف زلومة في غبطة :

— يا حسين يا حبيب النبى يا سيد الشهداء .. مدد .
فيقطف إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة :
— من ؟

فيجيبه زلومة ببراعة :
— سائل على وجه الكريم !
— وماذا جاء بك إلى هنا يا بن الزانية ؟

فيسأل زلومة بحدة :
— أملكك أرض الله ؟
— ألا ترانى ؟

— إني أرى بنور القلب .
فيتمتم إبراهيم القرد :
— عظيم .

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ،
لا أدري ماذا يفعل به ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث .

ويتجمعهم أناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، ييدر من البعض كلمات غاضبة :

— افترأ وظلم .

— أنت وحش .

— أنت لا تخاف الله !

ويصيح إبراهيم القرد :

— عليكم اللعنات .

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاحرة . كأنما هرس له دملا . يحن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء ، ينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف .

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضريير ، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه . وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود ، عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللعب ، إنه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان في الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق

أننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن . ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر :

— يا قرد . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك في الحال .

ولكن القرد يتحدى في التحدى متشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال المطافئ .

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوته التي لا مفر منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه معرنا منزهما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع ، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم بينانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميما وتحيات حارة .. ، فيواصل حياته السابقة متعمقا عند مدخل القبو مثل أسطورة .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم « ٤٢ »

البرجاوى منهك فى عمله بدكان الطعمية .

يمر به الكفراوى فيطلب منه شربة ماء . تتملك البرجاوى نزوة مزاح فيشير إلى حوض الماء الذى منه تسقى الحمير والبغال ويقول :

— إليك الحوض فاشرب .

ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوى ويصيح به :

— أنت جبان وقليل الأدب .

فيغضب البرجاوى بدوره ويصيح به :

— ملعون أبوك وأجدادك !

وتتبادل قذائف من السباب ويتجمع مشاهدون من أعمار متفاوتة . ويسعى إمام الجامع لفض الموقف ولكن أحدا لا يلقي إليه أذنا فينسحب مستاء .

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوى طوبة يقذف بها الدكان فتحطم المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف ، ويفقد البرجاوى أعصابه فيقبض على يد طاسة الطعمية ثم ينقض على الكفراوى فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركة إلا جثة هامدة .

ويهرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوى وأهل البرجاوى فيخوضون معركة دامية يستعمل فيها الطوب والعصى والسكاكين ، فيقتل من يقتل

وينتهى مصير الباقي إلى السجون .

وأعيش عمرا فلا أرى فى دارى البرجاوى والكفراوى إلا نساء وبنات يسعين فى السواد ، يحزننى ذلك بطبيعة الحال وأعلق عليه بما يناسبه . غير أن كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضبات الهادرة والملاحم الدموية ، ويتشرفون جهرا بالسجون والمشائق .

الحكاية رقم « ٤٣ »

حواش العداد من أصحاب المزاج فى حارتنا .

فى ليلة عيد يقرر أن يحيى سهرة كبرى فى بيته . يلبي دعوته كثيرون من أصحاب والمعلمين والمطربين والعوالم والراقصات . وتلعب الأوتار وتتهادى الأنغام فى جو من العريضة يهيج أشواق المحرومين ويثير استهجان أهل التقوى والورع .

ويتواصل الطرب والعريضة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم عميق ..

وعند ضحى اليوم التالى ، والحارة ثمة بأفراح العيد ، تصدر عن بيت حواش العداد ضجة غريبة وصيحات فزع كأن صاعقة انقضت عليه . ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون ، ثم تنتشر أخبار لم يسمع بمثلها من قبل .

يقول الرواة إن الداعى والمدعوين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين

في عالم خراب شامل لا يتصور ولا يوصف . إنهم يتذكرون كيف أن النوم سرقهم من بين أحضان المسرات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا أعينهم على عالم لا يرى إلا في أعقاب زلزال مدمر . فالأثاث النفيس قد تحطم إربا ، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتت أكواما ونثارا ، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تتهكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفا ، والقوارير والكئوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسرت وانتشر كسارها ، كذلك المصاييح والتحف وحتى السجاد والأبسطة والملابس . ماذا حدث ، لماذا حدث ، كيف حدث ١١٩ .

وتحضر الشرطة فتعاین وتسجل وتستجوب ولكن التحقيق لا يسفر عن شيء . ويقال هنا وهناك إن خلافا دب بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبق على شيء ، وأن رجالا من ذوى الجاه توسطوا عند المأمور فغطى على الحادث بالحفظ ، ولكن لم يسمع أن أحدا من المدعويين جرح جرحا عميقا أو أصيب بعاهة .

ويقال أيضا إن أعداء لحواش العداد دسوا لهم منوما حتى ناموا ثم دمروا كل شيء بتصميم شامل ودقة وحشية بالغة ، ولكن ألم يكن من المنطق أكثر أن يوجهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم ٩٩ . وعلى ذلك فلم يكن يصدق أحد هذا القول .

ويذاع كلام أيضا عن أن ما حاق ببيت حواش إنما جاء نتيجة لغضب من الله استحقه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأن الداعى والمدعويين هم الذين خربوا دارهم وهم ذاهلون في غيبوبة ثم تداعوا نياما شبه أموات . وهذا تفسير يلقي عادة أذنا مصغية في حارتنا ، ومثله ما قيل عن دور

العفاريات في الأمر نتيجة لنذر نذره حواش ولم يوفه .
وتمر أيام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حواش العداد حتى ييسمل ويحوقل ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم .

الحكاية رقم « ٤٤ »

هذه حكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده .

كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدي . صعد الشيخ إلى شرفة المئذنة ليؤذن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية ، مد بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلا يطبق يده على فيها لمنعها من الاستغاثة ، ثم يجذبها إلى الداخل تحت المصباح الغازى المضىء ثم ينهال عليها ضربا بشيء في يده حتى تهاوت ساقطة . عرف المرأة كما عرف الرجل ، أما المرأة فهي ست سكيينة أرملة صاحب مقلى ، وأما الرجل فهو المعلم محمد الزمر صاحب وكالة خشب . تسمر الشيخ أمل المهدي في مكانه متدثرا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتى أغلق المعلم النافذة . وراح يتعم :
— لقد قضى على المرأة .

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤدى الأذان .

جريمة قتل ، ماذا أوجد المعلم في هذه الساعة بيت الست ؟ ، توجد

أكثر من جريمة ، ارحمنا يارب السماوات والأرض !
وهبط السلم الحلزوني بمشقة ثم جلس على الأرض راكنا إلى المنبر
ظهره . وجاء أوائل المصلين فهاهم منظره وسأله بعضهم :

— لم لم نسمع صوتك يا شيخ أمل ؟

فأجاب لاهنا :

— بى مرض والله أعلم .

وكان المعلم محمد الزمر هو من تبرع ببناء الزاوية ، وهو الذى اختار
الشيخ إماما لها ورتب له أجره ، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه :

— يا له من امتحان عسير من رب العالمين !

ورقد الشيخ فى بيته ثلاثة أيام ولم يفتح فمه .

وانتشرت أنباء الجريمة فى الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست
سكينة وجدت قتيلة فى حجرة نومها وهى يجلباب النوم . وبدأ التحقيق ،
واستدعى فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدى .

سأله المحقق :

— ألم تسمع صرخة أو صوتا ملفتا للسمع وأنت تؤذن ؟ .

فأجاب :

— كنت مريضا فلم أؤذن تلك الليلة ..

— أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئا عن علاقتها بأحد ؟

— كانت سيدة فاضلة ولا علم لى بشيء .

وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه : « إني لمن الهالكين » .

وجعل ييكي بشدة من الحزن والعجز .

واكتشف فى أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحلى فحامت الشبهات
حول صبي كواء كان يتردد على البيت وفتش مسكنه فعثر على الحلى
وبذلك وجهت إلى الشاب تهمة القتل .

وبدا ذلك كله منطقيا إلا عند الشيخ أمل ، تابع الشيخ أنباء الجريمة
باهتمام جنونى ، مضى يحترق فى صميم أعماقه وينهار عصبا بعد عصب .
كان ورعا تقيا ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه .

ومن شدة القلق والحزن تهدم ودب الضعف فى أعصابه .

والتقى ذات يوم بالمعلم محمد الزمر أمام السبيل القديم فشد على يده
كالعادة ، وعند ذاك انتفض كأنما مس ثعبانا ، وحدث فيه بقوة غريبة حتى
تساءل المعلم :

— مالك يا شيخ أمل ؟

فوجد نفسه يقول :

— لقد رآك الله !

فدهش الرجل وسأله :

— ماذا تعنى ؟ .. أنت مريض ؟ .

فهتف به :

— اعترف بجريمتك يا قاتل !

ثم هروا إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج . لبث فى
سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس .

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره فى شرفة المئذنة .
ولكن أى ظهور كان ؟ . تطلعت إليه الأبصار بذهول وراحوا يقولون :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ..

— الرجل الطيب عار تماما .

— يا شيخ أمل وحد الله !

ومضى يدور في الشرفة متبخترا ويغنى بصوت متحشرج :

أما انت مش قد الهوى بس تعشق ليه ؟

الحكاية رقم « ٤٥ »

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف . متزوج ، أب لعشرة ، في الأربعين من عمره . يتميز بقوة شديدة وملاح خشنة وفقر مدقع . يتواصل عمله من الضحى حتى منتصف الليل ، لا يعرف الراحة كما لا يعرف الشبع . يحتقن بالحسرات إذا رأى الناعمين في المقهى أو تطايرت إلى أنفه رائحة الثقلية . وهو يغبط حمار الطاحونة في السرجة كما يغبط العطار أو صاحب وكالة الخشب .

ويقول ذات يوم لسيدنا إمام الجامع :

— الله يخلق الرزق ولكنه ينسى أبنائى .

فيغضب الإمام ويصيح به :

— لقد بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطا على بطنه حجرا ليسكن به جوعه ، اذهب عليك اللعنة .

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشق الظلماء فيتهادى إليه صوت هامس ناعم يقول :

— يا عم عاشور !

يتوقف متلفتا أمام نافذة مغلقة في دور أرضى بيت الست فضيلة الأرملة المستحقة في وقف الشنانيرى ، ويتساءل :

— من ينادى ؟

فيجيبه الصوت :

— أريد منك خدمة فادخل .

المكان مظلم ، حتى شبح التمساح المخطط فوق الباب لا يرى . يبرق من الباب ويمضى نحو المنظرة مهتديا بضوء يلوح في شراعة بابها . يرى السيدة فضيلة متربعة على كنية تركية فيقف بين يديها ناشرا في المكان رائحة عرقه الفظلة النافذة .

— أريد زيتا وكسبة ..

تقولها ببلاهة ، بلاهة تفضح مكراساذجا ، وتنضح بشرتها باعتراف قرمزي ، ويلمح في جفניה المسبلين معجزة الرضى والاستسلام ، ولكنه ليس الاستسلام الذى تبادر إلى خياله ، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبرة ، ويغادرها بعد أن يوقن بأنها تريده في الحلال !

ويلبث دهرا لا يصدق ، يتوهم أنه يتعامل مع حلم من الأحلام ، ولكنه يتزوج من الأرملة الغنية ، ويجرى ذكره في الحارة نادرة من النوادر ومثالا من الأمثلة . لا يبالي طبعاً أن يترك لها العصمة في يدها ، ويترك عمله

بالسرجة كما شرطت عليه ، ثم يطالع الناس في زى جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم . وبمشيئة ست فضيلة لا يطلق زوجته القديمة ، وترتب لها ولأولادها ما يكفيهم فيأركون الزواج من أعماق قلوبهم . هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة ، فيشبع ويسعد .

وست فضيلة سيدة جميلة وكاملة ، تحبه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد .

وهي لا تفرط في شيء منه . ناعمة مهذبة وفية ولكنها لا تفرط في قيراط منه . ومنذ اللحظة الأولى يشعر عاشور بأنها حريصة على ملكيته ملكية كاملة ، ظاهره وباطنه ، أصله وظله . حتى فكره وأحلامه ، فهو يعيش بين يديها ، في الحديقة أو المنظرة ، وحتى الساعة التي يقضيها في المقهى يرى شبحها وراء خصائص النافذة يطل عليه ، ولكنه ينعم رغم كل شيء بالحب والراحة والشبع .

وعندما يعتاد عاشور الطيبات ، عندما تطوى العادة معجزات الهناء ، يتسلل إلى روحه التأؤب . يتوق إلى ساعة يخلو فيها إلى نفسه ، يهيم على وجهه ، يمازح صديقا ، يرتكب حماقة بريئة ، ولكنه يشعر دواما بأنه مراقب ، خاضع ، مطارد . الحق أنه لا ينقصه شيء ولكنه سجين . ثم أغلال من حرير تحز عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة ، ويتدفق في روحه التأؤب .

ويجد الزمن طويلا ، ويجد الزمن ثقيلًا ، ويجد الزمن عدوا .



مشيرة ومغرية ، وجادة ومحتشمة في الوقت نفسه

(حكايات حارتنا)

ويقول لها ذات يوم :

— افتحى لى دكانا .

فتقول له :

— لديك ما تشتيه النفس ، ماذا ينقصك ؟

فيقول متشكيا :

— كل رجل يعمل حتى الشحاذون .

ويوقن بأنها تخاف أن يستغنى عنها بالعمل أو يستقل عنها بالنجاح ، وهو لا يريد من العمل إلا أن يهيء له قدرا من الحرية بعيدا عن نظرتها المستقرة .

ويرتد عاشور الدنف إلى التجهم والاحتجاج .

ويردد لسانه ألفاظ التذمر والظلم ونوادرهما .

ويغلى غضبه ويفور فيقرر أن يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء

البيت السعيد .

ويتبادى فى غضبه فيلطمها على خدها الأسيل ، فتطرده من الجنة

فيذهب متحديا ..

ويتعرض فى تشرده لمتاعب كثيرة ، يلتقط رزقه بعناء ، يتورط فى

أعمال مريبة ، يجلد مرة فى القسم .

وتحن الست إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها ، ولكنه يرفض ، يصو

على الرفض ، يمضى فى سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر .

يستحق عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٤٦ »

كنت أعود سعد الجبلى فى مرضه الأخير عندما ترامت إلى الحجرة من
الحاكي أغنية :

ما هو انت اللى جايه لروحك بإيدك يا قلبى

فتنهذ سعد وابتسم وتمتم :

— إى والله ، بإيدك يا قلبى .

وتبادلنا نظرة نظقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرات والآلام .

سعد الجبلى كاتب حسابات بدكان الرهونات بجارتنا . طموح بعيد

الأحلام فيبيع أرضا يمتلكها ويستقيل من عمله ثم يتاجر فى الروائح

العطرية . يربح أرباحا كثيرة ، يصير من أثرياء الحارة ، ولكنه لا يتمتع فى

الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية .

كل ليلة يدعو إلى بيته نخبة من الصحاب ، يقدم الطعام والشراب ،

يلعب بأوتار العود ، يغنى من له صوت مقبول ، تمتد السهرة حتى

منتصف الليل .

ثم يحجب تقديره في صفقة كبيرة ، لا يجد لديه من المدخر ما يسد به العجز ، يشهر إفلاسه ..

يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء وأخوات على باب الله . تمر به أيام قاسية شديدة ، تؤذى صحته وكبرياه معا ، ولكنه يبدو دائما رجلا قويا راسخ الأركان . يرجع إلى عمله الأصلي في دكان الرهونات ، يعطى دروسا خصوصية في الحساب ، يعيش عيشة التقشف .

وإيمانه قوى عميق .

أجل يشرب كثيرا ، لا يلتزم بالفرائض ، ولكنه مؤمن حقا ، تعتقد بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه لا مفر من المكتوب .

ولا يقعه عن العمل إلا المرض فيلزم الفراش .

وأفكر بحال أسرته فيملؤنى الأسى .

وأشير إلى من يلعب في الحجرة من الصغار وأقول :

— ربنا يشفيك من أجل هؤلاء !

فيقول باستسلام :

— أما الصحة فقد انتهت .

ثم يستطرد بثقة :

— أما الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول :

— الخوف كفر بالله ، أعوذ بالله من الخوف .

ثم بنبرة ساخرة :

— أحسبت أن حياقي أطعمتهم حتى تخاف أن يجيعهم موتى ؟

أتمن إيمانه منبرا من قوته .

غير أن سعد الجبلى لا ينسى الدعابة حتى وهو في أعماق المحنة ، فما أن يردد الحاكى :

ما هو انت الى جايه لروحك بايدك يا قلبى

حتى يتمم باسم :

— إى والله ، بايدك يا قلبى ..

الحكاية رقم (٤٧)

وشلبى الألبلى له حكاية تستحق الرثاء .

لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن مميز في حديثه هو الإعجاب بأبيه .

والفخر بالآباء شعار مألوف في حارتنا ولكن المغالاة فيه لا تخلو من دلالة

ولا يسلم على المدى من تهكم . وأبوه كان كاتباً في دكان الخردوات ، وكان

طويلاً عريضاً ، والرجال يقيمون بالطول والعرض في حارتنا .

يقول لى شلبى وهو يتنهد :

— طالما رأيت أبى بعينى طفل أو من خلال عيني أمى أيضا !

فأقول له :

— هذا حال كثيرين منا .

— ولكن الطفل يكبر ثم يعمل عادة في حرفة أيه فيتسنى له أن يراه على حقيقته أما أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعليمي فظل أرى في خيالي أسطورة .

— أى أسطورة يا شلبى ؟

— أسطورة الجلال والثراء !

ثم يواصل بعد صمت قصير :

— ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب ..

— عالم غريب ؟

— لم يترك مليما واحدا ، كانت صدمة ، وقلت إنه الكرم قد أهلك

ثروته ..

ويمضى في قصته أو في اعترافه فيقول إنه توظف ، وطمع ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال ، وأراد أن يزكى نفسه عنده فأخبره أنه ابن الألبلى ..

— ودهمنى الرفض ، نحرمت عن السبب بالحاح شديد حتى عثرت

عليه في ذكريات أرى !

— هكذا ؟

— تصور حالى إن استطعت .

ويجرى لاهثا وراء مزيد من التحريات ينبش بها قبر الراحل فتكشف له حقائق مريرة خافية ، أخطرها بلا شك اتهامه في شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عاما . وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتباً عنده لصداقة

قديمة بينهما .

شلبى الألبلى يجتر همومه وحده ، حتى أمه لا تدري شيئا ، وهو يفشى أسرار الدفينة لا يجد شريكا يبشهم ، ولكن لتوهمه أن سيرة أبيه أصبحت نادرة على كل لسان .

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارا قاسية مناقضة في حياته ، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقية بل مثالية في عمله وحرته . وها هو يتحرر بالفضيحة من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين . ويعدل عن طموحه إلى الزواج الممتاز ، ويثابر على التنويه بمآثر أبيه ..

ويقول لى مرة بصراحة صلبة :

— أهم شيء في هذه الدنيا أن نعرف الحقيقة ..

ويغمغم بثقة وأسى معا :

— الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

وصقر شاب مستقيم رغم حيويته ، ذو استعداد شديد للحياة الزوجية
ويجن لها حينها :

— بيت صغير وزوجة وأبناء ، تلك هي الجنة !
ويتنهد وتذوب نظرتة حسرة وأحلاما .

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر في صفحة وجهه الشحوب
والشروود ، ويمضى الأيام يتفجر الحرمان سخطا على الأهل والنفس
والناس ، ثم ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة .
والنساء مجبرات على البقاء في البيت — إلا لضرورة — منعا للقليل
والقال ، تحبسهن التقاليد ، يجمعهن الحرمان ، يعذبهن الفراغ ، يتسلين
بالنقار .

أسرة في صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس ، ونضال خفى مع
حارسها الذى لا يقل عنها يأسا وعذابا .

حتى الكلبة تضطرب في جنبات البيت محتنقة ، ممنوعة من الانطلاق
خوفا عليها من القذارة ، تلاعب الضيف بعنف ، تنقض على ساقه تتمسح
بها ، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى ..

ويتقدم العمر ، صقر يغط في عزوبته ، وهن يذبلن ويغصن في الماء ،
ويتسريل الجو بالقنامة . والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما
يستوجب من ازدراء ، لا علة واضحة لذلك ، ربما لأنه يصبح مثالا
للإذعان ، والانحناء حيال المصير المحتوم ، ومرآة للاصطلاحات

الحكاية رقم « ٤٨ »

الأب موظف حكومى صغير وذاك أمر — على أى حال — نادر في
حارتنا . لذلك ينشأ الابن — صقر الموازينى — محسودا بين أقرانه . ولكنه
يقول لى ذات يوم :

— لو كان أبى صعلوكا ما عرفت الهم أو الغم ..

ويتوظف صقر مثل أبيه . وبعد عام من توظيفه يتوفى أبوه موظفا
صغيرا فقيرا ، لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمة وأختين في سن الزواج
وكآبة ، كما يورثه أيضا تقاليد راسخة تتعلق بالكرامة وتطلعات جامحة نحو
الحياة الجميلة ..

وأكثرية النساء في حارتنا يرتقرن ، أما فى أسرة الموازينى وأمثالها
فمقضى عليهن بالانتظار ، واجترار الأحلام ، ومقضى على صقر وحده
أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء وكلبة .

وتمضى الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ ، ولا فرجة له إلا المقهى حتى
منتصف الليل .

ويجد راحته فى الشكوى فيقول :

— لن تتزوج أختاى أبدا ، فنحن لا نرضى بالصعاليك وأولاد الناس

لا يرضون بنا ، ومن ثم فلن يتاح لى الزواج أبدا .

أسرة تعاني الأشواق والحرمان ، حتى الأم والعمة لم يجاوزا الخمسين .

وفي صباى شهدت موكبا فخما يشق حارتنا يتوسطه رجل بالغ الروعة . اكتظت الحارة بالرجال وسدت النوافذ بالنساء ، جلجلت الزغاريد والهاثفات ، صدحت المزامير والطبول .

زار الدكاكين دكانا دكانا ، والوكالة والسرجة والفرن والحمام والكتاب والمدرسة والسبيل الأثرى والقبو والزاوية والساحات ، حتى البوطة والغرزة والقرفة طاف بها .

بهرنى منظره فانبعثت في قلبي فرحة لا حدود لها . وانتفض وجداني عن عقيدة راسخة « إن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل » وأنه جاء أخيرا استجابة لابتهاالاتي في هدأة الليل .

وهتفت بصوتي الرفيع الذي لم يناهز البلوغ :

— ليحيى زائر الليل !

وحدث ما لم أتوقعه أبدا ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم كأنما اندلق في أفواههم عصير الليمون المالح . وقرص إمام الزاوية أذني وصاح بي :

— يا لك من ولد قليل الأدب !.

وأمر صاحب الوكالة أحد خفرائه قائلا :

— أبعد هذا الولد الشقي ..

ودفعتني الأيدي إلى بيتي وأنا من القهر والمهانة في نهاية .

وجلسنا واجما محزوننا داعم العينين حتى قال لي أبنى :

— إنك أحمق ، أنسييت أن زائر الليل لا يجيء إلا في المنام !؟

والأساليب النسوية المقتبسة من البيت .

ويوما أرى كلبته في الطريق وقد تدلت بطنها وانتفخت فأرملتها بابتسام وإعجاب :

الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة .

أما صقر فبات يمقت أسرته ، ويقول عنها :

— أسرة لا تعرف الموت ، كما لا تعرف الحياة ..

الحكاية رقم « ٤٩ »

أمنية كل صغير في حارتنا أن يطوف به في منامه زائر الليل .

إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيئة تستقر في القلوب البريئة . في ليالى المواسم الأعياد يقولون لنا :

— استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم

فرمما أسعدك الحظ بمجيء زائر الليل ليحقق لك أمانيك ..

وتتابعت تمنياتي خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهاالات يزفرها

القلب بين يدي زائر الليل ..

— يا زائر الليل أغلق الكتاب وخذ سيدنا .

— يا زائر الليل افتح لي باب التكية واملا حجري بالتوت .

يا زائر الليل جدد مبانى حارتنا القديمة .

يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت .

الحكاية رقم (٥٠)

في زمن مضى لم أدرك منه إلا ذيله كانت الفتونة هي القوة الجوهرية في حارتنا . هي السلطة ، هي النظام ، هي الدفاع ، هي الهجوم ، هي الكرامة ، هي الذل ، هي السعادة ، وهي العذاب ..
جعلص الدنانيري فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيرا في حياة حارتنا . يجلس في المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخمة . وأنظر إليه بانهار فيشدني أي من يدي قائلا :

— سر في حالك يا مجنون .

وأسأل أي :

— أهو أقوى من عترة ؟

فيقول باسم :

— عترة حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان ..

وهو عملاق مترامي الأطراف طولاً وعرضا ، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه في حجم عجيبة ست أم زكي ، يتمايل فوق صهوة حصانه كالحميل ، ولكنه سريع الانقضاض كالريح ، ويلعب بالنبوت في رشاقة الخوافة ، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه .

لا يسمع صوته إلا مزجرا أو هادرا أو صارخا ، ودائما قاذفا سيلا من الشتائم . يخاطب أحباءه بيا ابن كذا وكذا ، يسب الدين وهو ذاهب

للمصلاة أو راجع منها . لا يرى باسم أو هاشا حتى وهو يتلقى الإتاوات ويصغى إلى الملق ، يستوى في ذلك عنده صاحب الوكالة وحمودة القواد ، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضطر أو يكشف عن عورته !

يعجز مرة أحد التجار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعا ولكنه لا يقبل فيضطر الرجل إلى البقاء في بيته مع الحريم حتى يجيئه الفرج .

ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عاريا . يتوسل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهمة متوثب ينتظر تنفيذ أمره . ويضطر الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعة قطعة وهو ييكي . يتوقف عندما لم يبق إلا السروال فيزجر الدنانيري فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجري نحو مسكنه مشيعا بقهقهات العصابة .

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن إجبار شخص على تطبيق زوجته ليتزوجها ، وهو كثير الزواج والطلاق ، ولا يجروأ أحد على الزواج من إحدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن .
ويمرض يوما فيلازم الفراش أسبوعا ، ويخبره أحد قراء الغيب بأن ما أصابه إنما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه ، فلما يبرأ من مرضه يأمر بالاحتفال أحد بعيد الفطر المبارك ، حتى زيارة المقابر حرمت علينا ، وتمر أيام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامتة ويغشانا ما يشبه الحداد .

أيامه أيام رعب وجبن وذل ونفاق ، أيام الأشباح والأناث المكتومة ،
أيام الشياطين والأساطير المخزية ، أيام التعاسة واليأس والطرق المسدودة .
ولكنه يرعب أيضا الحارات المجاورة ، ويسحق فتوات الحسينية
والعطوف والدراسة ، فتمضى زفة العريس من حارتنا بلا حراسة ،
ويتجنب الناس وقع خطانا اتقاء لتجهم المقادر .

ويقدر لهذا الجبل الشاخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة .
يدعى إلى فرح في الدرب الأحمر ، وعند مدخل البيت يتقدم منه غلام
ويقول له :

— يا عم .

فينظر إليه من عل باستغراب ويسأله :

— ماذا تريد يا ولد ؟

وبسرعة البرق .

أجل بسرعة البرق يخرج من جلبابه سكيناً فيطعنه في أعلى الكرش ثم
يشد السكين وكأنه يتعلق بها حتى المثانة !
بسرعة البرق وقع ذلك .

ويتجمد جعلص الدنانيرى كأنما دهمه نوم ، وتنحط معدته خارج
جسمه ، ثم يتهاوى كعمارة بكل ما يتضمن من قوة وإقدام ووحشية وثقة
في النفس والدنيا .
ويتبين أن الغلام ابن أحد ضحاياهم من كفر الزغارى دربته أمه وأعدته
لتلك اللحظة .

ويحتاج الخير حارتنا كالنار المستطيرة . نذهل ونفزع ونبكى
ونصرخ .

ونتمنح الخير وتبادل النظر فيتسلل إلى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان
وفرح .

ويستقر بنا الحال فنؤمن بأن علينا أن نحزن رغم أننا فرحون ، وأن علينا
أن نغضب رغم أننا راضون ، وأن علينا أن ننتقم رغم أننا شاكرون .
ويضر بنا موته كما أضرت بنا حياته وتكفهر الحياة بلعنات الشياطين .

الحكاية رقم (٥١)

ألعب أمام البيت مبتهجا بشمس الشتاء .

في الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران .

وهو ذو نظرة حاملة وصوت عذب وملاحم أسرة ، ويعجبني صوته

وهو يغنى :

عجائب والله عجائب ما يصحش يا منصفين

تهجرني وتعشق غيري وعواذلى مهنين

وفجأة يصمت عبده وتعرب ملامحه عن حزن بلا سبب ظاهر ، ويخيل

إلى أنه يرمقني باهتمام .

— مالك يا عبده ؟

ولكنه لا يرد أو بالأحرى لم يسمع . وكأنما يشرع في الضحك ولكنه

لا يضحك . وتند عنه صرخة ثم يسقط على وجهه . يتصلب عوده وترتعد أطرافه ويطفح الزبد من شذقيه .

ويحملة أهل الخير إلى داخل بيته .

وأقص على أمي ما رأيت فهتفت بحرارة :

— الله معه ومع أمه المسكينة .

وأسمع همسا أنه ممسوس وأنه لا يوجد له دواء عند أهل الأرض .

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله .

ويوما يرجع جعلص الدنانيري من القرافة في موكبه فتقف له الحارة على

الصفين ويركبها الهول ، إلا عبده فإنه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة

ويقول :

— إني ألعنك وطمظ فيك !

وأقول لنفسى جزعا : لقد هلك عبده .

ولكن الجبار يتسم ، بل ويتأبط ذراعه ، ويمضيان معا في سلام .

لم يرحم الجبار أحدا في حارتنا إلا عبده .

وتعلمنى الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدس طائفتين : الفتوات

والبلهاء .

وتحوم أحلام صباى حول الطائفتين .

أحلم حيناً بالفتوة وجلالها .

وأحلم حيناً بالبلالة وبركاتا !

الحكاية رقم « ٥٢ »

يقف زيان صبي مبيض النحاس بين يدي فتوة حارتنا السنواى مبتهلا فيقول له الفتوة :

— إن كنت صادقا فدعنى أجربك .

فيقول زيان بحماس :

— تحت أمرك يا سيد المعلمين .

فيقول السنواى بهدوء :

— اقتل أم على الداية .

ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله .

ويغوص زيان في هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه :

— إنها لمصيبة لم تجرلى في خاطر !

قبيل ذلك اللقاء كان زيان فردا مغمورا من أهل حارتنا ، ومن الشبان الكادحين في سبيل لقمة العيش .

وكان يطوى قلبه على حب مضطرم لأم على الداية بالرغم من أنها تكبره بعشرين عاما .

ويفكر في حاله فتراءى له طريقه مسدودا ، ورزقه محدودا ، وأنه لن يروق في عيني أم على إن لم يقلب حاله رأسا على عقب بضربة سحرية .



غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة

لذلك حلم بالانضمام إلى عصابة السنوى ليشب فوق حاجز الحظ وثبة موقفة .

ويتشفع لدى الفتوة بصديق لأبيه هو ميمون الأعور فيزكيه الرجل عند السنوى ويقدمه إليه ، غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة أمره في ختامها أمره المرعب :
— اقتل أم على الداية !

ويهم زيان على وجهه في الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده إلى مخرج . ويتسلل إلى ميمون الأعور ليلا في الغرزة فيقبل يده ويقول له :
— يا معلم ، إني خجلان ، ولكنني لا أستطيع قتل أم على الداية .
ويظن ميمون أن عجزه راجع إلى قلة الحيلة فيقول له :
— ليس أسهل من ذلك فهي تدعى عادة إلى البيوت في أواخر الليل .
فيقول يائسا :
— أمنيته أن أتزوج منها ذات يوم .
فيقول ميمون باستهانة .
— اقلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنسوان في حارتنا أكثر من الذباب !

— ولماذا أم على بالذات ؟

— هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه ، وهو يريد أن يجربك ، بل لعله علم برغبتك في المرأة .
فيقول متنهدا :

— الحق أننى لا أستطيع القتل !
 فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول :
 — أحسيت الانضمام للعصابة هوا ؟
 — أعرف الآن أننى لا أستحق هذا الشرف .
 — فأت الوقت !
 — فأت الوقت ؟
 — لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة فى الحارة .
 ويمضى زيان وهو يعد نفسه فى الضائعين .

ويفضى بهم إلى أمه فتنصحه بالهرب وتحثه عليه ، وقبيل الفجر يغادر
 زيان بيته حاملا بقجة ملابسه وخمسين قرشا ، هاجرا بيته وحارته
 وعمله ، مستقبلا العناء والمجهول .
 وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من
 عمر حارتنا .

الحكاية رقم (٥٣)

ومن فتوات حارتنا حمودة الحلوانى . ويحكى أنه الوحيد بينهم الذى
 عمر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذى اعتزل الفتونة بحكم
 العجز والكبر .
 وقد تاب وحج ولزم المسجد فى آخر أيامه .
 ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب
 درس العصر ، فقال للإمام :

— كثيرون يسيئون الظن بالفتوات ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون !
 فابتسم الإمام وقال متحكما :
 — إنك على رأس أولاد الحلال .
 فقال حمودة بإيمان :
 — حصتى من الخير لا يستهان بها .
 — عظيم ، أعطنى مثلا يا معلم حمودة ؟
 — أتذكر رجل الفل الذى اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات ؟ أنا
 الذى دبرت مصرعه !
 — ولكنها جريمة يا معلم .
 — أبدا ، وأنا الذى قتلت سمعة الدنش الذى قتل ابن زوجته .
 — ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة !
 — طظ فى المحكمة ، كان قلبى دليلى وهو أصدق الحاكمين !
 ثم بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه فى أواخر عمره :
 — ومن حسناتى أننى قتلت فهيمة الآلاتية القوادة المعروفة !
 فقال الإمام يازدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان :
 — قيل وقتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها !
 — لا تصدق كثيرا مما يقال !
 فضحك الإمام وقال :
 — زدنى علما بحسناتك !
 — وقتلت أيضا يمنى الخيشى .
 — وماذا كان ذنبه ؟

— العجرفة ، كان يسير في الحارة كأنه خالقها .

— تعنى أن نفسه سولت له أن يقلد فتوته !

— إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لى بفضل .

— لا تغضب وزدنى علما بحسناتك !

فضحك حمودة عن فم لم يبق فيه ناب واحد ولا ضرس ثم قال :

— حوادث القتل الباقية لا تعد من الحسنات وقد تاب الله على والحمد

لله .

فقال الإمام بعد تردد :

— ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش

العبد ؟!

فضحك حمودة واستغفر الله ، فقال الإمام بالحاح :

— حدثنى بخبره يا معلم حمودة .

فقال الرجل الذى لم يبد قط أن ذكريات جرائمه تؤرقه :

— كنت جالسا فى داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخن

البورى ، لم يكن بينى وبينه شئ على الإطلاق ، فدخن البورى وشرب

قهوته ثم قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى « غدا سأكون عندك فى

مثل هذا الوقت بالذقيقة والثانية كما اتفقنا فلا تنس » ، وما أدرى إلا

والغضب يجتاحنى فقررت فى الحال قتله ، ولم يطلع عليه الضبح !

— أذلك كل ما كان ؟

— بلا زيادة ولا نقصان !

— ولكن ما الذى أغضبك ؟

— لا أدرى ، حتى اليوم لا أدرى .

— ولكن لا بد من سبب !

— ربما أحققتنى ثقته البالغة فى نفسه وفى غده ، كان يتكلم بثقة

وطمأنينة !

— ولكن لا بد من سبب غير ذلك ؟

— قل إنه قتل بلا سبب !

فتعجب الإمام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبير قد أهزله فلم

يبقى منه إلا هيكل عظمى .

الحكاية رقم (٥٥)

ومما يحكى أنه كان بحارتنا شاب صعلوك يدعى عباس الجحش . لم

يكن يوفق أبدا فى إتقان حرفة ولا يمكث فى دكان أكثر من أيام ثم يطرد شر

طردة . وذات يوم رأى عباس عناية المتولى بنت بياع البدندورمة فأترع

قلبه برحيق الحب المسكر . ولم يجد سبيلا مشروعا إليها ففتق عقله عن

حيلة ، أن يتآمر مع صاحبه من الصعاليك على أن يمثلوا مع الفتاة دور

المتحرشين وعلى أن يمثل هو دور ابن البلد الشهم . وخرجت عناية

لتسوق فى ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعريضة ، فوثب

عباس الجحش من مجلسه على سلم السبيل ، فانقض عليهم كالوحش ،

صرعهم واحدا فى إثر واحد حتى طرحهم أرضا ، ثم تقدم من البنت وهو

يلهث قائلاً :

— مصحوبة بالسلامة .

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة . وجعلت من مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال .

وصادف ذلك وقتا خلت فيه الحارة من فتوة . ولم تكن الفتونة قد زالت بعد — فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا أن يكون لها فتوة ؟

ورأى أحدهم عباس وهو يحوم حول بيت بيع الدندورمة فهتف به :
— أهلاً بالجحش فتوة حارتنا !

واهتز عباس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام ، وتحت سطوة المخدرات قال لنفسه :

— فلنجرب هذه اللعبة !

وجمع أصحابه ، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد أن فرش طريقه بالدعاية المناسبة . وكانت الحارة في حاجة ملحة إلى فتوة لتحفظ ذاتها وكرامتها بين الحواري المتصارعة ، فاستقبلت عباس الجحش وصحابه بزفة وبابعته فتوة لها . وتحول الصعاليك إلى عصابة ، وانهالت عليهم الإتاوات ، فتحسنت أحوالهم ، وازدهت هم الخيلاء فخطرخوا في الأرض كالجمال ، ورويدا رويدا صدقوا أوهاهم .

وطلب عباس الجحش يد عنباية المتولى فقال له أبوها بوجه طافح بالبشر :

— بشرى لنا يا معلم !

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتم إلا بعد الزفة .

وتنبه عباس متأخرا إلى أن زفة الفتوة يجب أن تطوف بالحى كله ، وأنها الاختبار الرهيب للفتوة ، تجابه فيها تحديات الأعداء ، فيرجع منها إلى شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضى إلى القرافة .

لا بد مما ليس منه ، وماذا يمنع الحظ من أن يخدمه مرة أخرى ؟
وسكر وسكر أصحابه .

ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل ، وسار فيها رجال الحارة .

وعند باب زويلة .

عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف ورجاله .
رآه عباس فطارت الخمر من رأسه .

ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب الجحش حتى ركبتيه .

وهتف أهل حارتنا في حماس وبراءة فاضطر عباس إلى أن يلعب بنبوته كذلك .

لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية .

وتقدم خطوات في سكون ثقيل فتقدم فتوة العطوف في غاية من الحذر .

واندفع عباس نحو خصمه حتى ذهل أصحابه .
وفجأة .

وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفى ثم انطلق في ظلماتها

مثل رصاصة لائذا بالفرار !

ووجع الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .

ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .

ولم ير عباس بعد ذلك في حيننا كله . وظل قرانه معقودا حتى سقط

بمضى المدة .

الحكاية رقم « ٥٤ »

الويل لنا عندما يشتد النزاع بين الحارات ، عندما تتصارع التحديات

بين الفتوات .

نتوقع في الليل أن تجتاحنا هجمة غادرة ، نتعرض في تجوالنا في الحى

لتحرشات مباغتة ، تنقلب أفراحنا إلى معارك دامية ، يسود وجه الحياة

ويكفهر .

ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوفا بالمخاطر أما التسلل عن طريق القرافة

فيتهدده الشياطين وقطاع الطرق ، فننحصر في حارتنا كالفئران في

المصيدة .

ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية .

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرقى ، يقولون :

— لا بأس من هدمه لتسلل منه إلى صحراء الجبل ، ومنها إلى أطراف

الأحياء البعيدة التى نتعامل معها ونحن في مأمن من الأخطار المحدقة بنا .

والسور عتيق يكون الجناح الشرقى للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من

سفح المقطم . وتطيب الفكرة لنا فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا

بتنفيذ الفكرة . ويتساءل أناس .

— ألا يمكن أن يهتدى العدو إليها فيباغتتنا منها ؟

فيجيب أصحاب الفكرة :

— الوصول إليها عسير ، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم

فضلا عن أنه من اليسير حراستها !

ويشرح العاملون في العمل ، ويتبها لنا ممر إلى الصحراء نطلق عليه

« ممر السبيل » حيث إنه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثرى مباشرة .

هكذا نخلق ممرا سريريا للعالم الخارجى متجنبين طريقى الميدان والقرافة

الذين يحدان حارتنا من طرفيها .

ويتحدث مدرس الجغرافيا ذات مساء فى المقهى فيقول :

— نحن نتوهم أننا حققنا الأمان لأنفسنا وأنه لم يعد ثمة ما نخافه !

فيتعجب السامعون لقوله فيقول :

— كأن معاركنا مع الحارات المجاورة هى جملة ما يهدد سلامتنا !

فيزداد تعجب الناس من قوله وادعائه أما هو فيمضى قائلا :

— هنالك خطر هائل لا يفتن له أحد ولكنه كفيل بالقضاء على حارتنا

كلها بضربة واحدة ..

ولما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب :

— الممر الذى شق فى السور الشرقى .

— ممر السبيل ؟

— لو ينهر من السماء سيل فيكتسح السفح وينقض على الممر فيغرق الحارة !

وتتجمع في أعينهم أمارات الدهول والسخرية ويقولون :

— إنها لا تمطر في العام إلا مطرة واحدة وهى مطرة خفيفة كاللدابة . ولكنه يستطرد غير مبال باعتراضهم :

— الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة فى الوسط . ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين :

— يريد منا أن نستبين بمخطر داهم عاجل لا لقاء خطر وهى لا يقع إلا فى خياله .

وتمضى أعوام والحارة منهمكة فى صراعها اليومي . المدرس يكرر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلا هازئا حتى أطلق عليه « الأستاذ مسيلمة » .

وتريد السماء ذات شتاء فتراكم السحب وتسود وتهبط فوق المآذن . وتهب عاصفة تدك العلالى فوق الأسطح وتلعب بأشجار التوت فى التكية .

وينهل المطر كأنه أنهار تتدفق من عل .

ويتواصل انهلاله ثلاثة أيام كاملة .

حدث كوفى لم نعرفه من قبل غضبة فلكية كاسرة . وينصب من الجبل

طوفان فيندفع نحو الممر بسرعة قطار صاحب ، ويزجر فى هدير شامل تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجمع .

وتختفى أرض الحارة تحت طبقات من المياه المركزة المحصورة ، وتأخذ المياه فى الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفلية وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزاناً ومن الساحة بحيرة ومن الممر الضيق بين التكية والصور نهراً زاخراً ، ثم تجتاح المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث فى أحاديث لا حصر لها تغطيها الأكفان والخرق البالية .

وتهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافى وثقوبا فيهجر الحارة أهلها مذعورين وينتشرون فى الصحراء لاجئين مشردين والخراب يحيط بهم وارثا الأرض وما عليها .

محنة لا تنسى .

وذكرى مبللة بالدموع .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم (٥٦)

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرّر — كما فعل زيان في زمن أسبق — محاولة الانضمام إلى عصابة « الدقمة » فتوة حارتنا ، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له :

— احذر أن تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحة أو هذا الجلباب المزيت ، كن مثل الماء الصافي النقي ثم جرب حظك .

وقال له أيضا :

— فتوتنا يحب الجمال والنقاء ، وهو طراز وحده في سلسلة فتواتنا فافهم ذلك جيدا .

واقنع عبدون بأن الطريق إلى الدقمة ممهد ميسور ، فذهب إلى الحمام ليغير جلده في المغطس ، وأعد جلبابا ومركوبا جديدين . وفيما هو منهك في تجديد نفسه سأله صاحب له :

— ماذا هناك يا عبدون ؟ هل تفكر في الزواج ؟

فباح له بسرّه ، وكان الآخر صاحبا أميناً فقال له :

— ليست النظافة وحدها هي ما تهتم الدقمة ، إنه أيضا يحب الحكايات .

— الحكايات ؟

— عترة وأبو زيد وغيرهما ، فإن لم تعرف السير تعذر عليك أن

تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة .

— ولكن تحصيل ذلك يطول !

— عندك الراوى فى المقهى فلا تضع وقتا إن كنت صادق الإرادة

حقا !

ثم قال له وهو يمضى عنه :

— تغير الزمن يا عبدون ، فى بادئ الأمر كان الدقمة يرحب بأى رجل يروم الانضمام إليه ، أما اليوم فهو يستوى على عرش القوة دون منازع . وتفكر عبدون فى الأمر مليا . وكان عبدون رجلا عاقلا . قال لنفسه إنه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهواذة والصبر والإلتقان ، وألا يتكالب على هدفه تكالبا يفسده عليه . لبث فى الوكالة يعمل بهمة ، وتزوج ، وواظب على السهر فى المقهى يتلقى الحكايات على أنغام الرباب . لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة ، فالعمل فى الوكالة شاق ، وأعباء الأسرة لا يستهان بها ، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل ، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيل حلمه العذب يوم يمثل بين يدي الدقمة فى نقاء الماء وثرأء الرباب .

وذاع سره ، وعرف كل من هب ودب أن عبدون الحلوة يعد نفسه للفتونة .

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح ، فقال له أحدهم :

— النظافة مهمة ، والحكاية مهمة ، ولكن الشجاعة عند الدقمة أهم

من الاثنين !

— الشجاعة ؟

— أجل ، واحذر فى الوقت نفسه أن تستثير غيرته فيحنق عليك بدلا من أن يرضى !

— وكيف أوفق بين هذا وذاك ؟

— تلك هى مشكلتك وعليك أن تحلها بالفطنة يا عبدون يا ابن الحلوة !

وقال له آخر :

— والقوة مهمة أيضا ، عليك أن تثبت قوتك ، عليك أن تثبت أنك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنت قادر أيضا على تحمل الضربات مهما اشتدت .. ، وعليك أن تثبت له أيضا أن قوتك لا توزن بحال بقوته .

— ولكن كيف يتأتى لى ذلك كله ؟

— تلك هى مشكلتك يا عبدون !

ساورة الحيرة ولكنه أراد أن يطمئن نفسه فقال :

— أهل الخبرة يقولون إنه يجب الجمال والنقاء والخير ، أشهد أن

معاملته للبان تقطع بميله الأصيل للخير !

فتساءل الآخر فى حذر :

— وماذا عن معاملته للسقاء ؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال بإصرار :

— أخبرنى أبى ذات مرة أنه يجب الفقراء .

— بوسعى أن أعد لك عشرة على الأقل من أفقر فقراء حارتنا قد نكل

بهم وشردهم .

خرج عبدون من الأحاديث معتما مهموما حائرا ، حتى العدول عن الطريق خطر له ، ولكن الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص . وتشعبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والرباب وتجارب القوة والشجاعة ومغامراتهما . ومضى — رغم صلابته — ينوء بالعبء ، وتنزلق قدمه ، وتتراخى قبضته ، تبدد وقته وتشتت عقله وارتركب حماقات متلاحقة ، وتمادى فى طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته ، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة ، وطلق — عقب مشاحنات كثيرة — زوجته .

لم يكثرث لذلك كثيرا وظن أن الوقت أزف للقاء الدقمة الذى لم يبق له غيره .

وتفحصه الفتوة مليا ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

فأجاب عبدون :

— أن أصير من خدامك .

— أترى نفسك أهلا لذلك ؟

فأحنى رأسه ليخفى زهوه بمنظره الأنيق وقال :

— عندى ما يريد معلمى وزيادة !

فقال الدقمة بجفاء :

— لست فى حاجة إليك .

فذهل عبدون وقال بضراعة :

— فى سبيلك فقدت أسباب حياتى جميعا .

فقال الدقمة بلا اكتراث :

— أعرف ذلك .

— وتطردي رغم ذلك ؟

فقال الرجل بنفاد صبر :

— بل أطردك بسبب ذلك !..

وبات عبدون الحلوة نادرة تروى ..

الحكاية رقم « ٥٧ »

زغرب البلاقيطي من فتوات حارتنا المعدودين . وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر .

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبوت لعيب . ولولا إيمانه — وهذا حقيقة — بأن هيبة الفتونة لا ترسخ إلا بالنصر ما خاض معركة قط . ويصادفه التوفيق في معاركه فيضرب فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثم يمتد ظله فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة . ونجبه جميعا ونتغنى بانتصاراته وننعم بأبوته اللطيفة . وهو يجلس كثيرا في المقهى ليتابع الحكايات ، ويقرب إليه أهل النكتة والمنشدين والرجالين ، أحييه على صغر سنى فيرد التحية بذوق يبعث في أعماق النشوة والأمل . وسلوكه معنا فريد غير مسبوق بشبيه . يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة ، حتى هو نفسه يعمل

تاجر جملة للمخدرات ، ولا يطالب بإتاوة إلا للضرورة القصوى .

ولكن الفتونة هي الفتونة على أى حال .

فكلمة زغرب البلاقيطي هي الأولى والأخيرة في أى أمر من الأمور . والتحكم مرّ ولو كان طول العمر نتيجه . إنه يحذر الرجال من العريضة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيّد حرية الغلمان في لعبهم .

ويغالى في التدخل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز لبطولة أبى زيد ، ويبطل الزواج الذى يراه غير متكافئ ، والطلاق الذى لا يعجبه وإن رضى به الطرفان ، ولم يكن أحد يتجرأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده في المقهى لنفوره منهما .

وفي كلمة كبلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه . وزاد من حرج الموقف تكاثر المتعلمين في حارتنا يوما بعد يوم ، وشدة حساسيتهم ، وحدة ألسنتهم .

— اللعنة .. لم يبق إلا أن نتنفس بأمره .

— إنه مستبد ولكنه عادل .

— مستبد يعنى أنه غير عادل .

يسمع ما لم يكن يسمع بحارتنا . لأول مرة نعاصر حملة على الفتونة في ذاتها وبصرف النظر عن مزاياها . لأول مرة يقال إنه نظام بال وأنه آن للشرطى أن يحمى العباد . لأول مرة يلعن الفتوة الطيب كما كان يلعن الفتوة الشرير .

ويترامى التهامس إلى زغرب البلاقيطي فيغضب ويصيح :

— أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !
ويتجههم وينذر بالعنف .

وتتوجه قلوب نحو هجار الأقرع .
عملاق ورع وفيه شيء لله . إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقيا بالعواقب
جانبا .

وهو يقبع في الليالي في الساحة أمام التكية يردد الأناشيد ويحدث
نفسه . يتسلل إليه في الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون :
— أتريد يا هجار أن ترضى ربك ؟

فيعتقد هجار أنه يسمع هاتفا من الغيب فيقول :
— لييك !

فيهمس الرجل :
— لقد أعطيت القوة والبأس فحطم الأغلال ..

وينطلق هجار في الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدسة .
وتوقع الطيبون أن ينهار سجن الأغلال .
ويلوح هجار المارد بنبوته . وفجأة يضرب إمام الزاوية . ويثني بامرأة
ماضية في الطريق . وينهال بنبوته على تجار وعمال وتلاميذ !
وهاجت الحارة وماجت ، وتصايح الناس :

— جن الأقرع ..

— اقبضوا عليه ..



أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !

— حاصروه واضربوه ..
ورمى بالطوب من كل موقع حتى سقط مضرجا بدمه .

لم نفقه لما حدث معنى . وظن كثيرون أن الرجل لم يفهم الرسالة أو أنه أساء فهمها ، أو أن في الأمر سرا ما زال خافيا .
ولكن التذمر من زغرب البلاقطى يتزايد ، ويجهر كثيرون بما يضمرون ، ويعتدى الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة ، وتسرى في الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل .
وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنها تقضى في النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد .
وتستعاد حادثة هجار الأقرع في ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزا للحياة الجديدة .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم « ٥٨ »

يحيى ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك . في الحارة عصابات متخاصمة ، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر . ويغلى الحقد الأسود ، وتمج القلوب كراهية وتكاثر حوادث الاغتيال ، وينذر الغد بكارثة .

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض .
ثمة تجمعات من السحب القائمة تنتشر في الأفق ، غريبة في غير زمانها ، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس . وتتطاوّل نحو كبّد السماء وتنداح فتخفى إحداها الشمس وتوارى الضوء المنير .

وتمضى التجمعات في التكاثر والتقارب . وتتصل وتتلاصق فتتحول إلى تكتلات شاسعة ، في بطء ولكن في ثبات وإصرار حتى تشكل في النهاية سقفا غليظا من السواد العميق .

وتشخص الأعين نحن السماء متسائلة ، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحن السماء .

وتدب في السقف الأسود حركة متوترة فيبدو متموجا متصارعا متلاطما كأنه محيط من الظلمات مشتبكا في نضال ضار .

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة ، لا يدرون عم تتمخض ، ويتوقعون مزيدا من الإثارة المقلقة .

ويعضى الجو يتشرب بلون رمادى غامق ، يزداد قتامة وتجهما ،
ويعضى بحر السواد يقطر نتفا سودا ، تنتشر فى الجو ثم تزحف هابطة فى
هدوء مخيف .

ويهجّر الناس الحارة إلى الميدان ، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة ،
ينشدون فى الانطلاق والتجمع البشرى ما يفتقدون من أمان .

وتنفذ إلى حواس الشم رائحة ترايبية مثيرة للأعصاب ، يأخذ الكون
فى الاختفاء ، وتتخايل الأشباح ، ثم يفرق كل شئ فى ظلام دامس .

وترتفع الأصوات المتهدجة :

— يا ألطاف الله .

— ارحمنا يارب العالمين .

وتشملنا ساعة من التوقع المتوتر لأى خطر داهم لم يجر لنا فى خيال من

قبل .

وتتلاحم الأيدي فى الظلام لا تدرى يد فى أى يد توضع ..

الحكاية رقم « ٥٩ »

غنام أبو رايبه له قصة طريفة .

من ناحية الأصل يعد من فقراء حارتنا . تفوق فى المدرسة وعين بوزارة
الداخلية ، وترقى فى درجاتها حتى شغل منصب المشرف المالى على الأموال
السرية .

يتميز على صعاليك أسرته بالمسكن النظيف ، والزوجة الجميلة ،
والغذاء الطيب ، وله فى مظهره هيبه ، وفى مجلسه قطب يقصده ذوو
الحاجات .

ويختفى ذات يوم غنام أبو رايبه فلا تراه عين .

يتردد السؤال عنه فى البيت والمقهى ، بين المعارف والأقارب
والحساد . لا يظفر أحد بجواب حاسم ، ثمة غموض يكتنف الموضوع
ويثير الحيرة والريب . ليس الرجل مريضا ولا على سفر ولا صلة له
بالسياسة مدها وجزرها ، ولا خصوم له على الإطلاق ، فلم يبق إلا أن
تحوم الظنون حول أمور غاية فى الحساسية . وأن تختلف فيها الآراء تبعا
للنوايا والعواطف الشخصية ، فنسمع حيناً أنه هرب ، ونسمع حيناً آخر
أنه قتل .

ويظهر غنام أبو رايبه ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة . ويتزاحم

المهنتون في داره . ويفسر الرجل سر غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسئول في الداخلية ، تطور إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسئول ، فقبض عليه ، ولكنه أصر على موقفه حتى أفرج عنه .
ويصدق الناس ذلك ويعدونه بطولة . ويحال غنام أبو رابية على المعاش قبل مياعده القانوني بعشرة أعوام فيعتبر شهيدا ، والناس ذوو استعداد فطري لسوء الظن بالداخلية .

* * *

ومع الأيام تناقل الناس حكاية جديدة عن غياب غنام أبو رابية ، لا أدري كيف نشأت ، ولا من كان أول ناشر لها ، ولا مدى ما تنطوى عليه من صدق ، ولكنها رغم ذلك كله تنتشر وترسخ وتنضم إلى تساريخ حارتنا .

يقال والله أعلم أن غنام أبو رابية استغل مركزه كمشرف مالي على الأموال السرية فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيئات ، وقيل أكثر من ذلك . وأنه ضبط وحقق معه واعترف . كان الموقف غاية في الدقة والخرج ، فالرجل محيط بأسماء من توزع عليهم الأموال السرية في جميع المواقع ، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة ، فما العمل ؟ طالبوه برد المبلغ في نظير العفو الشامل عنه ولكنه رفض . ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنه لم يبال . لم يعثروا للمبلغ على أثر ، وتجنبوا تقديمه للنيابة حتى لا ييوح هناك بأسراره ، وكرروا المحاولة للاتفاق معه دون جدوى . أدرك منذ بادئ الأمر أنه في الموقع الأقوى وتلقى كافة التهديدات بسخرية . وقال لهم :

— أوف وأوف وأوف تنفق كل يوم على أوغاد بلا خلق فما الجريمة في أن أنال قروشا لنفسى وتراب حذائى أشرف من أكبر رأس فيهم ؟ إلى أرفض رد ملهم واحد وأطالب بتقديمى للنيابة العمومية .
ولم يكن في وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد ، ولا أن يتحملوا مسئولية القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك ، فاتفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألا يسأل عما اختلس مع إحالته على المعاش في الوقت نفسه .

وقد اشترى الرجل خرابة وشيد فيها عمارة واعتبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا .

الحكاية رقم « ٦٠ »

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين في نقش الأواني النحاسية . يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار ، ويرى هائما على وجهه في الساحة أمام التكية ، لا يعرف أحدا ولا يعرف نفسه . وسمعت أمه بالخبر فمضت إليه ولكنه لم يعرفها ، نادته باسمه فبدا وكأنه يسمعه لأول مرة ، إنه غريب تماما ، وكأنما ولد لساعته .

وانتهجت الظنون إلى المخدرات ولكن ذهوله طال ، تجاوز اليوم ، ويوما بعد اليوم ، ثم استقر كحال جديدة ثابتة ، أصبح رمانة وعاء خاليا من الذكريات والعلاقات البشرية ، أصبح جثة غير هامة . وقيل — كالعادة

في حارتنا — إنه ممسوس ، وعولج بوصفات شتى من الطب الشعبي المناسب ، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار ، ولكنه لم يبرأ فسلم الأمر فيه إلى الرحمن .

وذات صباح تقرأ أمه في عينيه نظرة جديدة ، نظرة متألفة تعكس شخصية غائبة كأنما هي ترجع فجأة من سفر طويل . يخفق قلب الأم بالأمل وتهف :

— رمانة !

فينظر رمانة إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع : — تأخرت عن الدكان .

ويمضى مسرعا إلى الدكان وأمه تجهش في البكاء .

ويقبل على معلمه قائلاً :

— غلبني النوم فمعدرة يا معلم .

ويرمقه الرجل في صمت وارتياح ، ولكنه يتركه يزاول عمله وهو يتحدث بفراصة صادقة ما طرأ على الشاب . وينظر رمانة فيما حوله باهتمام ، ولما لا يجد ما يبحث عنه يسأل :

— أين بيومي ؟

بيومي صديقه وقرين طفولته ، توقع أن يراه كالعادة قبالة ، ولكنه لا يوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله عنه اهتماما .

ويعلم رمانة رويدا أنه غاب عن الوجود أشهرا كاملة . يتلقى هذه

الحقيقة بنعومة وأناة ، ومع ذلك لا يدري كيف يهضمها . ويعود للسؤال عن صديقه بيومي فيقال له :

— البقية في حياتك !

فيصرخ :

— بيومي مات !

— بل شنق !

— شنق !؟

— اتهم بقتل زينب بياعة الحللى الزجاجية !

ويتمم بذهول :

— بيومي قتل زينب !

قليلون جدا الذين عرفوا أن رمانة فقد صديقه الوحيد وحبيبته الوحيدة ، وأولئك قالوا أيضا :

— وهو يعلم الآن أنه فجع في الحب والصدقة أيضا !

وقالوا :

— لقد ذهبوا مخلفين له الخيانة والخواء ..

وعانى رمانة تغيرا في الشخصية . لم يتردد إلى الغيبوبة لكن تسلل إلى صميم روحه الخمول وخيم عليه الصمت . عاش محتجا رافضا كارها ، يذبل ويهزل ، حتى مرض مرضا أقعده عن العمل ، واسود الأفق في عينيه .

وأرادت أمه أن تعزيه فقالت :

— لست فريدا في مصابك فمصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى !
فغادر المسكن من فوره قاصدا قسم الجمالية . مثل بين يدي المأمور
وقال بهدوء :
— أنا قاتل زينب بياعة الحلى الزجاجية ..

الحكاية رقم (٦١)

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسول وخفة اليد .
تسلل ليلة إلى بيت ست ماشاء الله عندما ثبت له غيابها في فرح . ولسبب ما
رجعت ماشاء الله مبكرة على غير توقع ، فما يدرى إلا وهى مقبلة نحو
حجرة النوم فاندعر واندس تحت الفراش وهو يرتعد .
أشعلت المرأة المصباح ، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقها وهى
تذهب وتجيء ، وسمعها وهى تترنم بخنان :
لك على لما تيجى تبقى ليلة أبهة

ترى متى يتاح له الهرب بأمان ؟
وغابت ست ماشاء الله دقائق ثم رجعت بأربع أقدام ! . ثمة طرف
جلباب مقلم ومركوب أخضر ، فانقبض صدر ابن عيشة وأيقن أن حبسه
سيطول !
قالت المرأة :

— آنست ونورت .

فقال صوت غليظ :

— لا يتصور أحد إلا أننا في الفرح .

وتناهى إلى اذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات وهسات مرحة .
قالت المرأة :

— لن يتخيل مهما تخيل أننى أفلت من زحمة الفرح .

فقال الصوت الغليظ :

— سيقتلنا يوما إن لم نقتله !

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحت الفراش ، وبدأ تأثير المنزول
ينمل حواسه ويزحف نحو جهازه التنفسى ، ويتشرب في روحه منذرا
بعواقبه المألوفة .

وسبح ابن عيشة في بحر لا شاطئ له ثم مضى يطير في الفضاء بتؤدة
وهيمان . حتى بلغ ذروة عالية نظر منها إلى حجرة ست ماشاء الله فرأها
بشيء من الوضوح على ضوء المصباح ، رأى إلعاشقين ، وحتى الرجل
المختفى تحت الفراش رآه ، تبدت المرأة عازية متموجة في سحابة من دخان
رمادى على حين مضى الرجل — كقرد — يثب بين غصون شجرة
فارعة . وترامى اللعب بلا نهاية غير أن عاصفة اجتاحت المكان المتوارى
فقطائر الدخان وتلاطمت الأوراق . وأكثر من صوت نادى بالدم ،
وتتابعت أصوات الارتطام والدق ، وتبودلت ضربات غاية في العنف
والقسوة ، وأقبلت قوات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحب أثر ..
وقرر ابن عيشة أن يواصل طيرانه في الفضاء مبتعدا ما أمكن عن

كوايس الأرض .. ، ولكنه ارتطم بشيء أو لعل شيئا ارتطم به .
وبمشقة استطاع أن يتملص من قبضة وأمكنه أن يحرك عنقه .. ، وأن
يرى الضوء .

وَجُرَّ جَرًّا من تحت الفراش .
وقف مترنحا في الحجرة ينظر في الوجوه المكددة به بذهول .
وقال شيخ الحارة لضابط النقطة :
— هذا ابن عيشة .. نشال يا فندم .
فقال الضابط :
— أخيرا تعلم كيف يقتل .
وقبض عليه .

ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ست ماشاالله وعشيقها ،
ثم قبض على القاتل في أثناء التحقيق .
وكان ابن عيشة يحكى قصته مرة كل ساعة . وقد أصابه لطف في آخر
أيامه ، وكان يقال إن الدروشة هبطت عليه تحت فراش ست ماشاالله .

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

الحكاية رقم « ٦٢ »

كان الحاج على الخلفاوى من أغنياء حارتنا . عرف بالطيبة والصلاح
أكثر مما عرف بالثراء ، يعطف على المظلومين ، ويعين الفقراء ، ويبر ذوى
القرى ، ومع الأيام ازداد ورعا وتقوى ورحمة ، ولكنه خص آل مهران
برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممن يظلمهم عطفه . وكان آل مهران قوما
فقراء ، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورطوا في الجنح والجرائم
واشتهروا بالعنف والبلطجة .

ولما شعر الحاج على بدنو الأجل استدعى إليه أكبر أبنائه وقال له :
— لقد رأيت حلما .

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاج :
— آن لى أن أزيح عن صدرى جبل الهم الأكبر .
فسأله ابنه :

— ما الحلم ؟ وما الهم الأكبر ؟

فاستغفر الحاج ربه وقال :

— بخلاف الظاهر يا بنى كانت حياتى مريرة !

— لم يا أطيّب الناس ؟

فقال الحاج وهو يتنفس بمشقة :

— أريد أن أحدثك عن آل مهران .

— إنهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقون ، بل الحق أنهم لا يستحقون إلا العقاب .

فأسبل الحاج جفنيه وقال :

— إنهم يستحقون كل ما نملك !

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكا لمهران الأب في شبابه الأول ، وأن الوفاة حضرت الرجل وهما في سفر فسرق ماله .
— المال الذى استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهران بفقده

إلى ما هم فيه .

قال الابن باضطراب :

— إنك لا تعنى ما تقول يا أبى .

— إنها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وغمرها صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج :

— كانت الحياة مريرة ، أريد أن أجتنب اللعنة ، أريد أن يرد المال

لأصحابه .

فتساءل الابن محتجا :

— هل نعتزف بأننا لصوص ؟!

فقال الأب بضراعة :

— هذه هى مشكلتك يا بنى .

— بل هى مشكلتك أنت يا أبى .

— إني أتردى فى حضرة الموت .

فتساءل الابن بجفاء .

— ولم لم تفكر فى التكفير من قبل ؟!

وأغمض الحاج عينيه كأنما تلقى لطمة ، وغمغم :

— اللهم مد فى عمرى حتى أهبىء نفسى للقياك .

ولكنه مات قبل ذلك ، بل إن رواية القصة يتهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجل بنهايته .

هكذا تروى الحكايات ، وبدقة فى التفاصيل لا تتاح إلا لمن شهداها .

ولكن هكذا تروى الحكايات فى حارتنا ..

الحكاية رقم « ٦٣ »

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة فى ضفاف الصبا . فى أحد الأعياد مزق شلضم جلباب قرمة الحديد فاشتبك فى خناقة حامية فضرب قرمة شلضم بمقدم قبقابه فقطع حاجبه ، وسجل فى وجهه أثرا باقيا .

منذ ذلك التاريخ القديم عشت عاصفة صفراء ضاربة للسواد فى أعماقهما ، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط فى المناسبات ، ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفائة للحنق ، ويظل منظر أحدهما قوة غادرة ومتحدية للآخر .

فى الكتاب يتبادلان الغمز واللمز ، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرض عليه سيدنا الشيخ عند أية فرصة سانحة .

ومات أبو شلضم وأقيم سرادق العزاء كالعادة ، ووقف قرمة فوق

سطح غير بعيد وراح يغنى :

حود من هنا وتعال عندنا

ولما خطب شلضم بنت الفسخاني حاول قرمة خطفها منه ، بالحيلة وبتسوى سمعته عند أهلها ، وفي خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به أثرا باقيا كالذى تركه بوجهه من قبل .

وتزوج كل منهما وأنجب ، وتفرقت بهما سبل العمل ، وتقدم بهما العمر شوطا ، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل ، حتى إنهما تبادلا السباب مرة في أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الإمام :

— لعنة الله على الشيطان وصحبه .

وصارا في حارتنا نكتة ، تستثير الضحك من بعيد ، وتنذر بشر

متجدد .

وتحسنت أحوال قرمة ، ظهرت عليه النعمة ، فتح دكانا للدخان بأنواعه ، لمع الذهب في أصابعه وأسنانه ، وادعى أمام الخلق أنه ربح ورقة نصيب فاستثمر ربحها ، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال معلمه ، وأنه لص لا أكثر ولا أقل .

وتوهم شلضم أنه قادر على أن يشق سبيله مثله فامتدت يده إلى مال معلمه ولكنه ضبط وحكم عليه بالسجن بضع سنين ، وغادره مفلسا ضائعا يرى غريمه في عداد الأعيان فجئن جنونه ، ولم يجد بابا مفتوحا إلا باب البلطجة فولجة بعنف ورغبة متصاعدة في الانتقام ، وجعل هدفه الأول المعلم قرمة ، حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده . لم يعد قرمة صعلوكا كما كان من قبل ، إنه يملك الآن مالا وبنين وأسرة وجاها

ويريد أن يحافظ عليها جميعا ، وأن يتمسك بالحياة من خلال تمسكه بها ، ولو تجشم في سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراءه حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه .

واستجاب شلضم لسياسة خصمه لبيتز ماله وليتمادى في ذلك بلا نهاية وبلا حياء ، واستحر الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلا الموت .

ودبر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجل ممن يؤجرون للقتل . وتوجس شلضم خيفة فقرّر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله . وتربص له بليل ثم قتله .

ولكنه لم ينعم بالحياة بعده إلا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفي بقية مستحقاته من أرملة قرمة .

هكذا قتل الرجلان في ليلة واحدة .

ويقول أنى بعد أن يحكى هذه الحكاية :

— الكراهية من الشيطان يا بنى ولكن الإنسان مثير للدهشة .

الحكاية رقم « ٦٤ »

عرف الخفير سلامة بالضمير الحى .. كان من القلة النادرة التى تقدر القانون فى حارتنا التى لم تتعود بعد على احترام القانون لحدائنه تحررها من الفتنة وتقاليد المتحدية الاستغرافية، ولاستقامته آثار دهشة أهل الحارة واستحق عن جدارة احترام المأمور والضباط . وتزوج سلامة أرملة تكبره فى السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه فى محنة لم تخطر له على بال . وأكد الشاب — ويدعى برهومة — المحنة بسطوه ليل على أحد الحوانيت . وضبطه متلبسا الخفير الساهر اليقظ سلامة . وأعاد الخفير المسروقات وغطى على الخبر مكثفيا بضرب ابن زوجته ضربا مبرحا . وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنه خسر جوهره الذى ميزه بين الناس ، وشعر بالخزى وخامره حزن عميق . وتمادى برهومة فى فسادته فثار غضب سلامة وجعل ينال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب . وقال له مرة :
— لا تضربنى .. إني أحذرك ..

فانقض عليه ليؤدبه ولكنه تراجع إلى ركن وصاح به :
— سأعترف ، سأذهب إلى القسم وأعترف بكل شيء ، وأعترف أيضا بتسرك على !، إن ضربتنى مرة أخرى فسأعترف !
وذهل سلامة ، وسأله وهو يكتفم فيضان غضبه :
— أنت تهددنى بعد كل ما فعلت من أجلك ؟

— لا تضربنى وإلا اعترفت .

فصاح به :

— إذن ألق عن فسادك .

فهتف وهو يفر من وجهه :

— أنا حر !

وقال سلامة لنفسه محسورا :

— إني أفقد كل يوم شيئا ثمينا لا يعوض .

ولاحظ كثيرون أن الخفير سلامة قد تغير ، وأن شائبة قد شابست استقامة قامته ، وهو من ناحيته شعر أن الناس يتغيرون أيضا ، ينظرون إليه باستهانة ما ، يجاملونه ولكن نظراتهم لا تخلو من سخرية ، لقد أوشكوا يوما مع إعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه ، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون .

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف .

وتأثر المأمور ، أمر بالقبض على برهومة ، وقال لسلامة :

— قدم استقالتك كيلا ترفت ، إني أعطيك هذه الفرصة لإكراما

لتاريخك .

ولم يهمل سلامة بلا عمل طويلا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيرا عنده .

وعُدَّ سلوكه مثالا طيبا عند أناس ، كما اعتبر نوعا من البله عند أناس آخرين .

الحكاية رقم « ٦٥ »

الشيخ لبيب وجه عتيق في حارتنا . تراءى لعيني معلما من معالم الحارة مثل التكية والقبو والسبيل . كان يتخذ مجلسه قبيل مدخل القبو ، على فروة يجلس ، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدرة . ذو جلباب أبيض وطاقيه خضراء ، مكحول العينين ضعيف البصر ، يطوق عنقه بمسبحة طويلة تستقر شرايتها في حجره .

تتقاطر النسوان على مجلسه ، يجلسن القرفصاء صامتات ، يصرمين بمناديلهن وينتظرن كلمة تخرج من فمه . يغمغم ويتشاءب ثم يتمطى ، ينطق بكلمة مفردة مثل « تفرج » أو بمثل من الأمثال مثل « يا رايحين ربنا يكفيكم شر الجاين » فتفهم المرأة ما تفهم ، فيتلهل وجهها فرحا أو يغمق كآبة ، ثم تدس المقسوم تحت طرف الفروة وتمضى . عاش الرجل دهرا رزقه يجرى ، وكراماته تروى ، واسمه يتردد على شفاه ذوى القلوب الكسيرة وما أكثرهم في حارتنا .

ويطعن الشيخ لبيب في السن وتغير الأحوال . يندر تردد الزائرات عليه حتى ينقطع أو يكاد . ويتكاثر التلاميذ من لا يراعون له حرمة ، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة . ويهتف الشيخ :



تتقاطر النسوان على مجلسه

— ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله ، وصحته أيضا . ويتوعد الناس والزمان بعقاب الآخرة ، ويتحسر على أيام الطيبين الزاهبين .

وأخيرا يسلم للزمن ، يتسول ، يمضى هاتفا ماذا يده ﴿﴾ كل من عليها فان ﴿﴾ .

— وأبوك ؟

— سافر من زمان .

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم إليه مشجعاً ويذهب ، ويلوح وجه الصبي الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق إلى الناس والطريق .

الحكاية رقم « ٦٧ »

عبد السكري ابن أحد حملة القماقم والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخر العنقود فأدخله عم السكري الكتاب فأحرز التفوق من أول يوم . ونصحه سيدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردد الرجل مليا بين إرساله إلى معلم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل ، ثم قرر في النهاية إلحاقه بالمدرسة . كان قرارا صعبا ، يعنى أن يعيش عبده عائلة عليه دهر طويلا بدلا من أن يعينه يوميته ، ولكن تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر . وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عم السكري بزهو :

— أصبح لى ابن من موظفى الحكومة !

— ولكن عبده أصر على دخول المرحلة الثانوية . كان يمضى إلى المدرسة ببذله القديمة المتهرئة وحذائه المرقع وطربوشه المزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلم فى السياسة أيضا . واستحق بعد ذلك أن يقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجان ، وأن يختار بعد ذلك عضوا بالبعثة

الحكاية رقم « ٦٦ »

وراء قضبان بدروم يلوح وجه صبي صغير . إذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

— يا عم ..

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

— أريد أن أخرج .

— وماذا يمنعك ؟

— باب الحجر مغلق .

— ألا يوجد أحد معك ؟

— كلا .

— أين أمك ؟

— أغلقت الباب وذهبت .

بانجلترا . من يومها أطلق على عم السكرى « أبو المهندس » ، وذاع صيته في الحارة ، وضرب بذكاء ابنه المثل . كان حلم عم السكرى في شبابه أن ينضم إلى عصاة فتوة أو ينتصر في خناقه ولكن الزمن يتغير ويأتى بالأعاجيب .

ويشغل عبده وظيفة مرموقة في الوزارة ، وبفضله قام أول مصباح غازى في حارتنا .

الحكاية رقم « ٦٨ »

من حكايات حارتنا التى لا تنسى حكاية عبدون اللاله . الأب كان عاملا في البوطة والأم بياعة باذنجان مخلل . أما عبدون فيعمل صبيا في الفرن .

يجيء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل الشبان . يحب سلمى بنت ونس الكناس فيتزوج منها ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة .

نشيط ذو همة عالية ، يعمل من طلعة الصبح حتى أول الليل ، لا يرتاح ولا يهمد ، لا يتذمر ولا يشكو ، المعلم يقدره والزبائن يحبونه . يصلى العشاء في الزاوية ، يحضر الدرس ، يؤاخى الإمام ويستترشد بآرائه فيما يعن له من مشكلات . نزهته الوحيدة سماع الشاعر في المقهى ثم يرجع إلى

بيته متسوقا بطيخة أو خيارا أو سمكا مقليا . وهو حليم يتحمل نزوات المعلم ، وسخافات بعض الزبائن ، وسخریات الأصدقاء بأدب وابتسام . ما أعجبه في حارتنا ، كأنه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصى والفتن من أهلها .

وذات يوم يظهر في الحارة بجلباب أبيض كالحليب وطاقيه مزركشة ومركوب أحمر . وكلما التقى بصاحب عانقه أو بذى مقام قبل يده ، وقد أضرب عن العمل ، ولم ينطق في ذلك اليوم إلا بجملته واحدة قال : — اقتربت الساعة .

ويختفى ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه صامتا . ويتعجب الناس ويتجمعون عند القبو . كيف صعد عبدون إلى سطح القبو ؟ ، ماذا يفعل في مرتع الثعابين ووكر العفاريت ؟ ينادونه فلا يرد .

ثم يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم بعنف بأرض الحارة .. وأقول لنفسى كلما تذكرت مصرع عبدون اللاله : — أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرا من أن أعرف لماذا عبدون انتحر .

الحكاية رقم « ٦٩ »

نادرا ما يخرج إلى الحارة ، وإذ يخرج لحاجة يمضى مهرولا ، في عينيه حذر وتوجس ، في أذنيه صمم يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به ، لا يخرق القبو ، لا يزور المقابر . يعيش وحيدا في بدروم ، لم يتزوج ، لم يذعن لنزوة ، يقرض النقود بالربا يدعى أبو المكارم . ويلعنه الناس ولكنهم يقصدونه عند الضرورة . وبلغ السبعين من العمر ، يتجمع لديه مال وفير ، ثم يكف عن العمل .

يتغير حاله ، تظهر عليه أعراض غريبة ، يرى من نافذة البدروم وهو متربع على الأرض مستقبلا الجدار بوجهه ، تمضى الساعات وهو لا يتحرك .

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتا حتى يسأله الشيخ :

— لماذا جاء أبو المكارم ؟

فيقول بلا مقدمات :

— حلمت حلما ..

فيسأله عنه فيقول :

— جاءني شخص في المنام وأمرني بأن أحرق مالي عن آخره !

فيبتسم الإمام ويقول :

— ربنا يجعله خيرا .

— ولكنه يتكرر ليلة بعد أخرى !

— ما شكل ذلك الزائر ؟

— لا أدري ، جفناى ينطبقان في حضرتيه .

فيسأله الإمام باهتمام :

— من نوره ؟

— أظن ذلك ..

— هل أعلن عن هويته ؟

— كلا .

فيصمت الإمام مليا ثم يقول :

— أتستطيع أن تتصدق بمالك على الفقراء ؟

فيرمقه برية ثم يذهب .

وذات يوم من أيام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتنبه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم . يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفا عاريا تماما والنار تشتعل في ماله .

* * *

ويهم بعد ذلك على وجهه عاريا ، يلتقط الطعام من أكوام القمامة ، ثم يقبع في ظلمة القبو . ويعثر عليه يوما ميتا تحت القبو فيدفن في قبور الصدقة .

ويرى أحد الأعيان حلما ، يزوره سيدنا الخضر ويبلغه أن أبو المكارم ولى من أولياء الله وأنه — العين — مكلف بإقامة ضريح فوق قبره .

ويقيم الرجل الضريح ، وبمرور الزمن تتلاشى ذكريات أبو المكارم وتبقى له الولاية .

وأسأل أئى :

— وكيف عرف الوجيه أن سيدنا الخضر هو الذى زاره فى المنام ؟ .
فيجيبنى :

— لعله صارحه بذلك .

فأسأل :

— لو كان أبو المكارم وليا حقا ألم يكن الأفضل أن يتصدق بماله على الفقراء ؟

— فى تلك الحال كنا نعهده محسنا لا وليا !

ثم يستطرد بعد صمت :

— العبرة بالحلم ، لقد من الله عليه بحلم ، فهل تملك أنت حلما مثله ؟

الحكاية رقم « ٧٠ »

سحب الخريف تتراكم فتقطر قتامة على حارتنا ، ها هم الباعة يترنمون بحلاوة الجوافة والبطاطا .

ويشير رجل نحو القبو ويهتف :

— يا أطفاف الله !

ينظرون فيرون رجلا خارجا من ظلمات القبو ، عاريا كما ولدته أمه ،

يتأوه ويترنخ ، تغذله ساقاه فيقع على الأرض ، ثم ينهض متشبها بالجدران ، يتلفت حوالبه ويكي .

يهرع إليه أهل الخير ، يغطونه ، يضمّدون جرحا غائرا فى رأسه ، يسألونه :

— ماذا حدث لك ؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه :

— من أنت ، ما اسمك ؟

يواصل أئينه بلا جواب فيسألونه :

— من أين أتيت ؟

لا جواب ولا أمل فى جواب :

— أى مكان تقصد ؟

وبالتخمين وحده يعرف على نحو ما ما وقع له ، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق .

ويندمل الجرح ولكن العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش فى الحارة لا ييرحها ، أنسا إلى ما يلقي من ستر ورحمة ، تطعمه الصدقات ، ينام تحت القبو شتاء ، وعند سور التكية صيفا ، كلامه هذيان أو أصوات مبهمه ، يضحك ويكي لغير ما سبب ، ويظل مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف .

ولما كانت دواعى الإهمال والاحتقار هى نفس دواعى الإجلال والتعظيم فى حارتنا فإن عبد الله — هكذا سمي باعتباره اسم من لا اسم له — يحتل مع الأيام مكانة سامية وتتحلق حوله هالة مبهمه من القداسة . يحبونه ،

(حكايات حارتنا)

- كلفنى بذلك أناس طيبون وأنت سيد العارفين .
- فأدرك الإمام أن الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريد يوسف أن يتزوج منها فقال :
- ولكنه متزوج !
- الدين يسر والحمد لله ..
- عائلة المّر قديمة فى الحارة وحرفتهم العطاراة .
- وعمره ؟
- فى الثلاثين ، يعمل فى دكان أبيه ، له ثلاثة أبناء .
- يغيب أحيانا عن الحارة أسبوعا أو أكثر ؟
- فيبتسم الإمام ويقول :
- يبدو أنك تعرف عنه الكثير ، ولكنه يغيب فى رحلات تجارية .
- ثم يتساءل الإمام :
- من الذى كلفك بالتحري ؟
- فيقول معتذرا :
- لست فى حل من ذكره .
- فيتضابق الإمام ويسأل بجفاء :
- وحضرتك من تكون ؟
- أدعى عبد الآخر المقاول .
- أى مقاولات ؟
- كلا ، إنه لقبى ، أما عملى فطحان غلال .
- ويودعه ثم ينصرف .

بلا طفونه ، يتوددون إليه ، يحيطونه بأسرار ، يؤولون أصواته المبهمة ، يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفية .

وأسمع ذات يوم رجلا يدافع عن « ولاية » عبد الله فيقول :

— أى فرد منا لا تيسر له الحياة إلا بفضل معرفته للأصل الذى جاء منه والمهدف الذى يسعى إليه ، أما عبد الله فقد تيسرت له الحياة وحظى ببركاتنا مع جهله بكل ذلك ، ومن ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله ومهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقدیس !

الحكاية رقم « ٧١ »

- رجل غريب فى المقهى .
- الغريب فى حارتنا يسترعى النظر ، فمن أين جاء الرجل ؟
- جاء من ناحية القبو وهو ما يعنى أنه جاء من ناحية القرافة غير مبارك الخطوات .
- ويمضى الغريب إلى الزاوية فيسلم على الإمام وهو يقول :
- لا خاب من أسترشد .
- فيقول له الإمام :
- نهديك بما نعلم والهداية من الله .
- إنما أريد معلومات عن يوسف المّر ؟
- لماذا يا أخى ؟

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال ، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسره ،
تخدم مليا ثم تخف وتلاشى .

وذات مساء يرى الغريب قادما من ناحية الميدان .
يشق الحارة بلا توقف حتى يختفى في القبو ، ثم يميل إلى الممر الضيق بين
السور العتيق وبين سور التكية ويمضى نحو القرافة .

ويعلم يوسف المرّ بخبره فينطلق في أثره حتى يفوص في ظلمة القبو .
وتمضى ساعة فيقلق الأب ، ويذهب في أثر ابنه حاملا فانوسا لينير له
الطريق مصحوبا ببعض عماله .

في القبو تتراعى إليهم تراتيل الأوردة الأعجمية آتية من التكية ، وفي
الساحة ، وعلى ضوء الفانوس ، يعثرون على يوسف المر مطروحا على
الأرض وقد فارق الحياة .

ومع أن الطبيب الشرعى قرر فيما بعد أن الرجل مات بالسكتة إلا أن
قراره لم يحترم لحظه واحدة في حارتنا .

يهزون رعوسهم ويتمتمون :

— الرجل الغريب !

ولكن من الغريب ؟ ، ولم قتل يوسف المر ؟

هنا تتبادل النظرات وتتاجى الهمسات وتنداح في الجو موجة من
الأسرار المخارقة .

الحكاية رقم (٧٢)

وعكلة الصرماقي حكايته حكاية .

كان أبوه صاحب سيرك ، كان قويا وخلقا . يشتهر عكلة منذ صباه
بالرشاقة الخلافة في الملعب .

يتوفى الأب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع . ينضم إلى عصابة
فتوة فيثبت صلابته وينال حظا من الثروة . وهو ذو رائحة خفية تجذب
أشواق النساء فيستوى على عرش الهوى فتنة للقلوب ، ويوغر صدور
الرجال حتى يقول له الفتوة :

— تأدب وإلا شوهت وجهك .

وكان قلبه لا يعرف الحب الحقيقي ، يهيم بالمرأة حيناً ثم ينبذها ،
وتفوق غزواته كل خياله ، ويؤمن أناس بأنه يؤاخي الشياطين ويستعمل
السحر .

وفجأة يتزوج .

يتزوج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها ، ويستقر في بيت الزوجية
استقرارا يبشر بالدوام .

ويزهده في الفتونة كما زهد في السيرك من قبل ويفتح دكان حلوى ،
ويربح ثروة لا بأس بها .

وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الراجحة فيصفيها ويفتح مطعم لحمه رأس

وكبدة فينجح ويحقق ثروة أكبر من الأولى .
ويجتاحه حب المال ، يحل من نفسه محل النساء والسيرك والفتونة
فيتاجر في المخدرات والأراضى ، ويتاع بيتا ودوكارا ويتحلل بالذهب .
ويقرر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة الكبيرة . يبنى
قصرا ويميش عيشة الأكابر ، ويشترى عزبة ، ثم لا يرى في حارتنا إلا عند
عقد الصفقات .

ويعشق الترحل ، وما أن يجربه حتى يخلب له ، فهو يوما بالإسكندرية
ويوما في أسوان ، ويزور البلاد العربية ، بل ويغامر برحلات في أوروبا .
عندما تمعجه بقعة من الأرض يفتن بها ويصرح بأنه لن يرحلها حتى
نهاية العمر ، ثم يعتادها ويروم غيرها ، ويعذبه عشق الأماكن كما عذبه
عشق النساء والمال وغيرها من قبل ، وبين كل رحلة وأخرى يرجع إلى
حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات .

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات فيتساءل :

— ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضا ؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة
إلا لضرورة .

ويتساءل عكلة :

— ترى أين جبال الواق ؟

ثم يتساءل مرة أخرى :

— وأين سور الدنيا ؟ وإذا أطل الإنسان منه فماذا يجد ؟

وتترامى عنه أخبار وأخبار .

يقال إنه أدمن الشراب ، يقال إنه يدمن المقامرة ، يقال إنه يرتكب
حماقات لا عد لها ولا حصر .

ويطول غيابه في الخارج حتى يظن أنه لن يرجع .

واعتبره الأهل مفقودا .

وتمضى السنون .

وذات صباح يعثر على جثة كهل في الساحة أمام التكية شبه عار .

ويتعرف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماقي . ينظرون إلى جثته

ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبدى والسر المنطوى .

كانت حياته أسطورة ، وموته لطمة .

الحكاية رقم « ٧٣ »

مصطفى الدهشورى ابن سقاء ولكنه من القلة الراسخة في العلم في

حارتنا ، وهو أحد المدرسين بمدرستنا وصديق لأبى .

يسأل أبى وهو يجالسه ذات مساء في بيتنا :

— ما معنى الحياة ؟

يتسهم ، ولما يجده جادا في سؤاله ومصرأ عليه يحدثه بما يعلم عن الأصل

والهدف ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، فيقول الدهشورى :

— إذن فأنت واثق من كل شيء ، من الحياة والموت وما بعد الموت ،

أعندك فكرة عما يحدث في القبر ؟

فيحدثه أبى عن التلقين وحساب الملكين ومستقر الروح وشفاعة النجاة في الآخرة ، وعند ذلك يقول الدهشورى :

— إليك قصة الجسد البشرى ساعة بساعة من الوفاة حتى يستحيل هيكلًا عظيمًا ..

ويردد حديثنا مرعبًا ومقززا كأنه كابوس طويل ، فيهتف أبى محتجا :
— كفى ، ماذا تريد ؟

— أريد أن أصور لك حقيقة لا شك فيها .

فيسأله أبى ساخرًا :

— ألا تؤمن بالله ؟

فيتسهم قائلا :

— بلى ، لا حيلة في ذلك .

ثم يواصل حديثه :

— ولكنه لا يتصل بى وأنا عاجز عن الاتصال به ، بيننا صمت قاتل وأرى في الحالة شرا لا تفسير له ، وأرى في الطبيعة عجزا ونقصا ، ولا أفهم لذلك معنى ، فلم أشك في أنه — سبحانه — قرر أن يتركنا لأنفسنا ، بلا اتصال وبلا عناية ..

ويصارحه أبى بأنه يجدف تجديفا خطيرا ، ولكن الدهشورى يستمر

قائلا :

— وإذن فالإيمان بالله يقتضى الإيمان بتجاهله لعالمنا ، كما يقتضى منها الاعتقاد الكلى على النفس وحدها .

وسأله أبى غاضبا :

— أنتخيل حال الناس لو آمنوا بفكرتك ؟

— لن يكونوا أسوأ مما هم بحال من الأحوال وثمة أمل بأن يكونوا أحسن .

ثم يشرح فكرته قائلا :

— لا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ أنها أمانة ملقاة علينا ، ولا مفر من حملها بكل جدية وإلا هلكنا ، وإذا أمكن أن يوجد أحيانا أمثال الخيام وأبى نواس فإنما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادين الكادحين الذين يقومون بحمل الأمانة عنهم ، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض ؟ ، وإذن فلا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو إن وجدوا أنفسهم في عالم بلا إله ، لا مفر من الجدية ، ومن الإبداع ، ومن الأخلاق ، ومن القانون ، ومن العقاب ، وقد يستعينون أيضا بالعقاقير الطبية لمقاومة الضعف في السلوك والتفكير كما يستعينون بها في مقاومة الأمراض ، وسيفعلون ذلك بإصرار ، ولن تنهم عزيمتهم بسبب أنهم يجدون أنفسهم في سفينة بلا مرشد في بحر بلا شطآن في زمن بلا بداية ولا نهاية ، ولن تحتفى البطولة ولا النبيل ولا الاستشهاد . ويتريث قليلا متساعحا مع غضب أبى وسخريته ثم يستطرد .

— وذات يوم سيحقق الإنسان نوعا من الكمال في نفسه ومجتمعه ، وعند ذاك ، وعند ذاك فقط ، ستسمح له شخصيته الجديدة بإدراك معنى الألوهية وتتجلى له حقيقتها الأبدية ..

ويتواصل النقاش حتى ينال منهما التعب ، ثم يتساءل مصطفى

الدهشورى باهتمام :

— كيف يمكن أن أنشر أفكارى فى حارتنا ؟

فيقول له أبى بحدة :

— أهل حارتنا غارقون فى هموم الحياة اليومية ، يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة .

— ولكنها مشكلات لا تحل الحل الأمثل إلا بأفكارى ؟

— أهل حارتنا لا يفهمون إلا لغة واحدة هى اللغة المشتقة من همومهم ، الحاوية لعذاباتهم ، المقدسة بأوراد الكائن المرجو عند الشدة الذى تريد أن تنزعه من قلوبهم .

ورغم حرص مصطفى الدهشورى تنسب إليه أفكار خارقة تسمى إلى سمعته بين الناس فيشير لفظا يفصل بسببه من وظيفته وتجهمه الحياة فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٧٤ »

الأعور يتأهل لموعد غرامى فى الساحة أمام التكية . يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة ولكنه يسترسل فى الشرب حتى يفقد ذاته تماما .

يفادر الخمارة عقب منتصف الليل فيذوب فى الظلام ، ويزدوب فى الحب ، ولا يدري أين يتجه ، يرتطم فى الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه حيث إن جنونه غير مؤذ ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه ، ويقول له :

— أرشدنى إلى طريق التكية .

فيتحرك نؤنؤ المجنون وهو يقول له :

— لا تترك ذراعى .. لماذا تريد التكية فى هذه الساعة من الليل ؟

— أتريد الحق ؟. إنى ذاهب للقاء حبيبتى .

— عظيم .. وأنا ذاهب أيضا للقاء حبيبتى .

— فى الساحة مثلى ؟

— بل فى التكية نفسها .

— ولكن الأسوار عالية :

— لا مستحيل فى الليل .

ويكاد الأعور أن يسقط من شدة الترنخ فيقول متشكيا :

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com



نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد ؟

— نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد ؟
— لم يمض على سيرنا إلا أسبوع واحد .
فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول :
— الزمن لا يرى في الظلام .
— والمحوبة هل ترى في الظلام ؟
فيضحك السكران ويقول :
— إني لا أعتمد على عيني للتعرف على المحوبة .
— إذن فأنت مجنون !
— ولكن أين التكية ؟
— نحن لم نسر بشهادتك إلا أسبوعا واحدا .
— ولكنني أقطع الحارة نهارا في ربع ساعة .
— في الليل تطول المسافة ، ألا ترى أننا لا نتوقف عن السير ؟
ويدوخ الأعور ، وتعجز ساقاه عن حمله ، فيسقط على وجهه ،
ويروح في سبات عميق لا يستيقظ منه إلا مع أول شعاع للشمس . ينظر
فيما حوله بذهول فيجد نفسه أمام الخمارة لم يتعد عنها خطوة واحدة .

ويقول راوى هذه الحكاية — صبي الخمارة — أنه كان يقف عند
الباب ، يسمع حوار السكران والمجنون ، ويراهما وهما يدوران حول
نفسيهما متوهمين أنهما يتقدمان .

ومن يومها والمثل يضرب بهذه الحكاية في حارتنا فيقال لمن يسترشد بمن
لا يرشد : « أنت سكران وهو مجنون فكيف تصلان إلى التكية ؟ » .

الحكاية رقم « ٧٥ »

يدخل عمر المرجاني البوطة في غاية من الأبهة والأناقة .
جلبابه الأبيض يشع نورا ، عمامته المقلوطة تتوج رأسه ، مركوبه
الأحمر يتألق ، تحت إبطه خيزرانة رشيقة .

يحيى الحاضرين ببشر ويقول :

— تمتلئ قلوبكم بالهنا والأفراح .

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة في أعماقه ويتسم .

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتز طربا ويقول لمن حوله :

— صدقوني أن الحزن في هذه الدنيا ليس إلا وهما عابرا .

ويفرغ القرعة الثالثة في جوفه ويقول :

— ملعون من يلعن الدنيا ، لقمة حلوة ومرة حلوة وإيمان حلو ، ماذا

تريدون بعد ذلك ؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول :

— أنا سعيد يا جدعان ..

ويرقص بخفة وبهجة ..

وإذا بصوت خشن لم يحدد مصدره يهتف به :

— نريد الهدوء .

ولكنه يواصل الرقص ، ويأخذ في الغناء أيضا :

شوفوا العجب حبيت فلاحه

فيعود الصوت الخشن قائلا :

— احترم نفسك واجلس ..

ولكنه يستمر في معانقة الفرحة ..

ويرتفع نبوت في الهواء ثم يهوى على رأسه ..

عند ذاك يتوقف عن الرقص ، يسكت عن الغناء ، تتصلب سحته

نافضة عنها لآلئ السعادة .. ثم يتهاوى على الأرض ..

الحكاية رقم « ٧٦ »

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إن الحكومة ستهدم التكية ضمن
مشروع للمرافق العامة . في لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين
والوكالات والغرز والبوطة والخرابات في حارتنا .

— حارتنا ميمونة ببركة التكية .

— الخضرة والأزهار لا ترى إلا في التكية .

— والأغنيات الإلهية أين تسمع إلا في التكية .

— وما المكان الذي لم يضم أذى لإنسان إلا التكية .

وبالبحث والتحري تكشف حقيقة غريبة وهي أن صاحب المشروع

هو المهندس عبده السكري ابن حارتنا !

ويقول عبده :

— التكية تعترض مجرى الحارة كالسد وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال .

فيقولون له :

— وهل علمت أننا متضايقون من ذلك ؟ . وألا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال ؟

— لا تنسوا أن القرافة ستنقل عما قريب إلى صحراء الحفير وسيحل محلها عمران شامل .

— طول عمرنا نسمع أن القرافة ستنقل وها هي باقية لا تتحرك ، فكيف هان عليك أن تقترح إزالة التكية المباركة ؟
واشتد النقاش ، وحى الانفعال ، وكتبت العرائض ، وحل بحارتنا توتر وحزن لم تعرفهما من قبل .

ويرتفع صوت معتدل يقول :

— لا وجه للعجلة ، فلننتظر حتى يتقرر بصفة نهائية نقل القرافة ويشرع في ذلك بالفعل ، عند ذاك يحق لنا أن نناقش مسألة هدم التكية .
وغلب هذا الرأي فراجعت الوزارة وتأجل المشروع .

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا .

وأما القلة المعتدلة فهي تقول :

— فلتبق التكية ما بقيت القرافة .

الحكاية رقم « ٧٧ »

أنور جلال جالس على سلم السبيل الأثرى وهو يضحك عاليا . أنظر إليه فيخطر لى أنه سكران أو مسطول فأمضى نحوه وأجلس إلى جانبه ثم أسأله :

— ماذا يضحكك ؟

فيجيبني وهو لا يكف عن الضحك :

— تذكرت أنني طالب بين طلبة متنافسين ، في مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة ، في حارة وسط حارات متعادية ، وأنى كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة ، في كرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لى عليها ، والمجموعة ضائعة في سديم هائل ، والسديم تائه في كون لا نهائى ، وأن الحياة التى أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ، وأن على أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهتم بالأحزان والأفراح ، لذلك لا أتمالك نفسى من الضحك .

فأضحك معه طويلا حتى يحدجنى بنظرة ساخرة ويسألنى :

— هل تضمن أن تشرق الشمس غدا ؟

فأقول بثقة :

— أستطيع أن أراهن على ذلك .

فيقول وهو يضحك :

— طوبى للحمقى فهم السعداء .

الحكاية رقم « ٧٨ »

عرفت الشيخ عمر فكرى فى بيتنا وهو فى زيارة لأبى . هو كاتب محام متقاعد ، فتح عقب تقاعده مكتباً للأعمال لمعاونة أهل حارتنا فى شئون الحياة بعد أن توثقت أسباب الاتصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة . ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة ، ويقدم خدمات متنوعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجارية وشئون الزواج والطلاق .

سمعته وهو يقول لأبى بكل ثقة واعتزاز :
— من خبرنى الطويلة أستطيع أن أقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين الحياة !

تحركت فى أعماقى رغبة قديمة كامنة فسألته :

— أتستطيع أن تقدم لى خدمة ؟

فنظر إلى باسماء وسألنى :

— ماذا تريد يا بنى ؟

— أريد رؤية شيخ التكية الأكبر !

فضحك الشيخ عمر عاليا وشاركه أبى ثم قال :

— إن الخدمات التى أقدمها جدية وتتعلق بجوهر الحياة العملية !

— ولكنك قلت إنك تقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين

الحياة .

— ولكن التكية خارج أسوار الحياة ؟

— هى ليست كذلك فى الواقع .

وقال لى أبى :

— أسمع بعض ما تحفظ من أشعارها .

فرددت بسرور :

— بلبلى خون دلى خورد و كلى حاصل كرد .

فقال الشيخ عمر فكرى مخاطباً أبى :

— ما أكثر الذين يرددون هذه الأشعار بلا فهم « ثم ناظرا نحوى »

أنفهم معنى كلمة واحدة مما رددت ؟

فهزرت رأسى نفياً فقال :

— إنهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكن حارتنا مجنونة بهم .

فقلت له :

— إنك قادر على كل شئ .

فتمتم أبى .

— أستغفر الله العظيم .

وسألنى الشيخ :

— وما أهمية رؤية شيخ الدراويش لك ؟

— لأننا أكد من تجربة مرت لى فى طفولتى .

وقص عليه أبى قصتى القديمة فضحك الشيخ عمر وقال :

— أعترف لكما بأننى رغبت ذات يوم فى رؤية الشيخ الأكبر .

— حقا ؟!

— قلت لنفسى إن الحارة كلها تردد ذكره رغم أنه لا يكاد يزعم أحد أنه رآه وولعت بفكرة رؤيته ولع الأطفال ، ماذا يحول بينى وبين ذلك ؟ ، ومضيت إلى التكية ، طلبت مقابلة أى مسئول بها ولكنهم لاقونى من وراء السور بتجهم وقلق ، ولم يبدو أى استعداد للتفاهم ، تكلمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة ، حتى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب ، ورجعت معترفا بحماقتى ، يائسا من تحقيق فكرتى بالاتصال المباشر ، مقتنعا فى الوقت نفسه بأن اقتحام التكية بالطريق المشروع متعذر أو مستحيل ، وأن اقتحامها بالتسلل خرق للقانون لا شك فيه لا يتوقع من رجل يقوم عمله فى الحياة على احترام القانون .

— هكذا عدلت عن رغبتك ؟

— لم أعدل عنها كما ظننت ، ولكننى جربت وسيلة ثانية طفت بالطاعنين فى السن من أهل حارتنا ممن عرفوا بالتقوى فادعى بعضهم أنهم رأوه ولكن لم يتفق اثنان منهم على وصف محدد له ، اختلفوا الحد التناقض ، وهذا يعنى فى نظرى أن أحدا منهم لم يره .

فقلت بحماس :

— ولكننى رأيته .

— انكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون .

— وما وجه الاستحالة فى رؤيته ، ألا يخطر له أحيانا أن يتمشى فى

الحديقة مثلا ؟

— ومن أين تعلم أن الذى تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشا من

الدراويش ؟

— وهكذا نفضت يدك من المسألة ؟

— أبدا ، كنت مجنونا أكثر مما تتصور ، ذهبت إلى ديوان الأوقاف متحديا ، حصلت على معلومات لا بأس بها عن أوقاف التكية وعن فرقتهم الصوفية ، عن الدراويش المخصص لتسلم الريح ، ولكن لم أعثر على كلمة واحدة تخص الشيخ الأكبر فضلا عن كراماته التى تؤمن بها حارتنا .

فقصصت بالخفية ورمقته بنق ثم قلت :

— توجد وسائل أخرى ولا شك ؟

فقال باسما :

— يوجد العقل ، هو الذى خلصنى من رغبتى المحمومة ، قال لى إننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر !

فسأله أبى :

— هل يصلح هذا دليلا على عدم وجوده ؟

— إنه لا يقول ذلك ، إنه يقرر حقيقة نعرفها جميعا وهى أننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر .

فقلت :

— ولكن توجد وسيلة ولا شك للتثبت من وجوده ومن رؤيته ؟

— لن يتأتى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد ، وإنى كما تعلم لا أحيده عن القانون أبدا .

فضحك أبى وقال :

— اعترف أنه توجد خدمة واحدة على الأقل لا تستطيع أن تؤديها

يا شيخ عمر .

فجاراه في ضحكته قائلاً :

— ليكن ، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر ؟ ، ألم تكن رغبة

مضحكة ؟

فسألته بحرارة :

— لم يغلقون في وجوهنا الأبواب ؟

— التكية شيدت في الأصل في خلاء لأنهم قوم ينشدون العزلة والبعد

عن الدنيا والناس ، ولكن بمرور الزمن امتد العمران إليهم وأحاط بهم
الأحياء والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة .

وابتسم ابتسامة فاترة وقال :

— لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة وهى وإن تكن غير مجدية في

تحقيق رغبتك إلا أنها قاطعة فى أنه لا يمكن تحقيق الرغبة إلا بوسيلة غير
مشروعة خارقة للقانون .

تلك ذكرى لا تنسى .

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون ، ولكنى فى

الوقت نفسه لا أستطيع تصور تكية بلا شيخ أكبر .

وبعضى الأيام لم أعد أرى التكية إلا فى موسم زيارة المقابر ، فألقي

عليها نظرة باسمية ، وأستقبل ذكرى أو أكثر ، وأحاول أن أتذكر صورة

الشيخ أو من توهمت ذات مرة أنه الشيخ ، ثم أمضى نحو الممر الضيق

الموصل إلى القرافة .